مَوْسُوعَةُ
فَوَائِدِ القُرآن الزكِيَّة

سُورَةُ الحَدِيدِ

أ.د خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

موسوعة فوائد

القرآن الزكية

سورة الحديد

أ.د. خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

فوائد سورة الحديد

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾ ﴾

ابتدأت سورة الحديد ببيان تنزيه مخلوقات الله تبارك وتعالى لربها جَلَّ جلاله عن كل ما لا يليق بعظمته وجلاله عَزَّ في علاه. فقال تعالى ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ سبح بالذكر والتنزيه لله تعالى جميع من في السماوات والأرض، ليشمل ذلك جميع المخاليق، من الملائكة والكواكب والنجوم والأفلاك والشمس والقمر، وكل ما ارتفع وعلا من خلقه. وكذلك الأرض وما خُلِق عليها وفيها، من الدواب، والحيوانات، وما حوته من بحار ومحيطات وأنهار، وما بداخلها من أنواع الأسماك والحوت والأصداف. فلا شيء إلا وهو يسبح لله تعالى. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: أي: من الملائكة والأناسي، والجان، والحيوان، حتى الجماد[1] وبهذا يشمل الكافر من الجان والناس، لأن دلالة التسبيح تشمل أيضاً دلالة الخضوع، فمن كفر من الجن والإنس، فهوا خاضع ذليل لله تعالى. ولذلك قال أهل العلم: أن من دلالات تسبيح الجمادات خضوعها لله تعالى[2] وهذا من غزارة المعنى الذي أفاد قوة وقهر الله تعالى لكل شيء. فشمل التسبيح الخضوع والخنوع، بأنه تحت قبضة الله تعالى، كما هو التنزيه له عَزَّ وجل عن كل ما لا يليق به وبعظمته تبارك وتعالى.

وقد ذكر عَزَّ وجل في سورة الإسراء ما يبين عدم إدراك الإنسان لتسبيح مخلوقاته جَلَّ شأنه، حيث قال تبارك وتعالى ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٠٨/٣)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٩/٤-٣٠)

تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ فالسماوات السبع، والأرض تسبح وتنزه الله تعالى، بل وكل من في السماوات والأرض يسبح الله تعالى تنزيهاً وإجلالاً. وهو التسبيح والحمد والثناء الذي يتناسب مع حال وهيئة تلك المخلوقات، وتسخير الله تعالى لها. ولكنكم أيها الناس لا تفقهون وتفهمون تسبيح تلك المخلوقات، مما يفيد محدودية علم ومعرفة الإنسان، وقصور إدراكه، وأن عليه أن يتواضع ويعترف ويؤمن بما جاء عن الله سبحانه وتعالى، من غير منازعة، ولا تطاول على ما قَصُرَ علمه عنه، فيما ليس له به حق. وهذ الإخبار من الله تعالى عن عظيم ملكه، وطاعة خلقه له، ما يفيد ويقرر بأنكم أيها المشركون تُقَدِّمُون الطاعة لغيره عَزَّ وجل، ممن تزعمون زوراً وبهتاناً أنهم شركاء، فليس له شريك في ملكه، وكل شيء هو ملكه عَزَّ وجل. وبالتالي فإن خلائقه جميعاً طائعة له تبارك وتعالى، وزيادة عن الطاعة تسبح وتنزه الله تعالى عن كل نقص.

ثم أعقب ذلك البيان إظهار كمال عزته وحكمته التي تستوجب تسبيحه عَزَّ في علاه، فقال تعالى

﴿ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ إن ربكم هو المتصف بكمال العزة ﴿ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ﴾ أي: الغالب والقاهر لجميع الأشياء، فليس مثله شيء في العزة والانتقام والقهر والغلبة، بما يفيد أن كل من يريد أن يتعالى على الله عَزَّ وجل، وعلى كتابه القرآن العظيم، ورسوله صلى الله عليه وسلم، ودينه العظيم، فإن مآله إلى الهزيمة والذلة والخسارة.

والصفة الثانية: ﴿ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ أي: الموصوف بكمال الحكمة في أفعاله وأقواله، وتدبيره لشأن خلقه، مع كمال الحكم والعدل، والذي يضع الأمور مواضعها، وينزلها منازلها الحقيقية. كما أن الحكيم يعطي دلالة الإحكام والإتقان في التصرف والتقدير. بما يفيد ويدل على أن جميع ما خلق هو وفق حكمته، وحكمة تدبيره جَلَّ شأنه، ومن ذلك القرآن الكريم، فإنه كتاب مُحْكَم، لا يعتريه نقص ولا تناقض، ومستوفي كمال الحكمة في أحكامه وتشريعه،

وآدابه وقصصه ومواعظه وبيانه، لأنه جاء من الحكيم سبحانه وتعالى. كما يفيد ﴿ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ أنه سبحانه وتعالى حكيم في أمره، وتدبيره، إذ يضع الشيء موضعه الصحيح، وهو الحكيم في تدبير ملكه، وتصريف خلقه، من الإيجاد لهم بعد العدم، ثم إلى العدم بعد الوجود، وذلك بموتهم وفنائهم، ثم من العدم إلى الوجود، وذلك ببعثهم وإحيائهم يوم البعث والنشور. فيحاسب ويجازي بحكمته. كما هو الحكيم في أفعاله وأقواله، وتدبيره، وتشريعه، وفي جميع شؤون خلقه عَزَّ وجل.

كما يفيد هذا الإعلام من الله تعالى بهاتين الصفتين: التحذير أيضاً لكل من يدبر ويخطط، ويضمر الشر لدينه سبحانه وتعالى، ولكتابه ولرسوله صلى الله عليه وسلم، وللمؤمنين، فإن حكمة الله تعالى في معالجة الأمور تُسقط أهل الشر فيما يدبرون من الشر لدينه وأهل دينه. فإن أمرهم مكشوف عند الله تعالى، وسيجعل كيدهم في نحورهم، ووبالاً عليهم.

وقد أكد بأسلوب المبالغة أنه سبحانه وتعالى هو العزيز الحكيم ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ فهو عزّ وجل العزيز لا غيره المتصف بكمال العزة والحكمة. وقد حصر سبحانه وتعالى كمال العزة والحكمة له جَلَّ في علاه. إذ أفادت بُنية كلمتي ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ المبالغة في ذلك، بامتداد المعنى إلى أقصى غايته. فهو المبالغ في عزته وحكمته. فله العزة المطلقة، وكذلك فهو ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ فله الحكمة المطلقة. فمن كانت هذه صفاته العظيمة، فإنه يستوجب الرهبة من عزته وقوته وقدرته سبحانه وتعالى، وكذلك الإذعان لكمال حكمته، سواء عَلِم بها العبد أو لم يعلمها. وكذلك الرغبة في رحمته بطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم، واتباع كتابه القرآن العظيم، وشرعه الحكيم. فالحمد والشكر على نعمائه سبحانه وتعالى.

ومن دقائق البيان وترابط مطلع سورة الحديد مع خاتمة سورة الحاقة التي قبلها في الترتيب. أن الله تعالى ختم سورة الحاقة بالأمر بالتسبيح ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ وافتتح سورة الحديد بتحقق التسبيح من جميع مخلوقاته ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ بما يفيد فعليكم أيها العباد تحقيق ذلك في نفوسكم وعقولكم وفي أفعالكم، وذلك باتباع رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، وإقامة التسبيح اعتقاداً بالجنان، وذكراً باللسان، وتطبيقاً بالأفعال والامتثال.

ثم يذكر تبارك وتعالى عظيم ملكه الذي يسبح له جَلَّ في علاه جميع خلقه في السماء والأرض، فيقول عَزَّ وجل ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ إن لله ربكم مُلك السماوات والأرض، فإنها له وحده لا شريك له، وليس لغيره فيها شيء، ليتقرر بذلك بطلان الشرك، ونفي الشريك، مما يترتب عليه كمال توحيده، وإفراده بالألوهية، والربوبية، والعبادة. فإن لله سبحانه وتعالى جميع ما خلق من السماوات وما فيها من مخلوقات، وله الأرض وما فيها من مخلوقات، فله الملك كله، وله الخلق كله، وبالتالي له كمال التدبير، ووجوب الطاعة. وفي هذا تذكير وبيان وتعليم وتعريف بحقيقة الوجود بأنه له عَزَّ وجل، وإزالة جهل كل جاهل بها وعنها. فله وحده سبحانه وتعالى جميع ما خلق من السماوات وما فيها من مخلوقات، وله الأرض وما فيها من مخلوقات، فله الملك وله الخلق، وبالتالي له كمال التدبير، ووجوب الطاعة.

وقد شملت دلالة ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ كل ما ارتفع مما يراه الإنسان ومما غاب عنه فلا يراه. ومن ذلك الأفلاك والأجرام والسحاب وغير ذلك مما لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى، وقد شملت ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ جميع ما هو عليها، أو ظاهر على سطحها، أو بداخلها، مما لا يراه الإنسان. فاستوعبت ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

﴿ وَٱلْأَرْضِ ﴾ جميع ما خلق الله سبحانه وتعالى مما يراه الإنسان وما لا يراه، مما قَصَّرَت حواسه عن إدراكه ورؤيته، وهذا من عظيم البيان في كلام العزيز الرحمن.

فهو سبحانه وتعالى مخترع ومبدع هذا الكون، وبالتالي فإن الذي اخترع السماوات والأرض بهذه العظمة، وهذا الإبداع فإنه هو العظيم الذي لا عظيم غيره، وهو الذي يجب على العباد طاعته. وبما يفيد كمال ملكه وكمال قدرته، وسعة وعظمة ما خلق، فَدَلَّ ذلك على أن كل شيء عبد له، وتحت مشيئته وسلطانه سبحانه وتعالى، وأنه هو القاهر فوق عباده، مما يلزم طاعته وتوحيده، وإفراده بالعبادة، والخوف منه، ورجاء ما عنده عَزَّ في علاه.

ثم يضيف تبارك وتعالى أنه ﴿ يُحْيِۦ وَيُمِيتُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ وأن ربكم هو المتفرد بالإحياء والإماتة، فقال تعالى ﴿ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ﴾ فذلك له وحده لا شريك له. فإن مِن كمال قدرته جَلَّ في علاه أنه هو الذي بإرادته وقدرته يحي ويُوجِد ما يريد إيجاده من العدم، ويميت ويُفني بعد الإيجاد وحصول الحياة ما يشاء. فهو المتصرف في الحياة والموت وحده لا شريك له. فقد انتقل السياق الكريم إلى بيان كمال قدرته في الإحياء والإماتة، بأنها له وحده لا شريك له، وليس لغيره الإحياء والإماتة، فهي خاصة به عَزَّ وجل ﴿ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ﴾ فهو الذي أحياكم أول مرة بالإيجاد، وهو الذي يميتكم، وبالتالي كما أحياكم أول مرة، فإنه كذلك يحيكم من قبوركم، ثم إليه تحشرون. فهو الاستدلال الذي يُظهر كمال القدرة التي يمتنع بها أن تفكروا في عدم البعث والنشور. فأين أنتم عن هذه العظمة في كمال القدرة؟

فأظهر وقصر البيان الكريم فعل الإحياء والإماتة عليه سبحانه وتعالى ﴿ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ﴾ وذلك كونها فعل من أفعال الله تعالى. ليكون وقعها في النفس أعمق في هذا البيان. ولتفيد كمال التصرف في الحياة والموت بأنه لله عَزَّ وجل. فهو المتصرف في وجودكم، وإيجادكم، وإماتتكم، وإحيائكم بعد موتكم، وذلك بالبعث والنشور، للحساب والجزاء.

ثم يرتقي البيان بالإخبار والإعلام إلى كمال القدرة الربانية على كل شيء يريده جَلَّ جلاله. فقال تعالى ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فربكم على كل ما يريد قدير. فلا يعجزه شيء. فيقرر سبحانه وتعالى لجميع العباد بأنه عَزَّ وجل لا يعجزه شيء، وأن كل شيء تحت قدرته وسلطانه وقهره جَلَّ جلاله، ومن ذلك الموت والإحياء، والأرزاق، ونصرهم وتمكينهم بالفتوحات والمغانم، وفي كل شأن من شؤونهم. فلا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، بما يفيد التطمين، والترغيب في طاعته، وتعظيم شأن ربهم جَلَّ في علاه. وكذلك التحذير من معصيته،

فإن قدرته عَزَّ وجل تشمل كل شيء، فاطلبوا عونه ليعينكم وتمكينكم، وأن لا تيأسوا، واحذروا مخالفة ربكم سبحانه وتعالى.

وقد أورد البيان كمال القدرة لله تعالى بصيغة المبالغة ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ التي تفيد امتداد المعنى إلى أقصى غايته وكماله. كما استهل البيان بحرف ﴿ وَهُوَ ﴾ لإفادة: الحصر والقصر على أن ليس لأحد هذه القدرة، بل إنها الله تعالى فقط. وأن الأمر والشأن ليس قاصراً على الإحياء والإماتة فقط، بل ممتد لكل شيء، وفي كل زمن وحال ومكان، فهي تعطي معنى كمال القدرة على كل شيء مع اتصال الزمن من غير انقطاع لكمال قدرته تبارك وتعالى، ولتعطي معنى الإخبار عن الصفة الدائمة المستمرة ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ التي لا تنقطع، لا سابقاً ولاحقاً.

ثم يتتابع البيان العظيم في إظهار جلال ربنا تبارك وتعالى وعظمته وعزته جَلَّ في علاه، فقال تبارك وتعالى ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْـَٔاخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ إن ربكم هو الأول، فليس قبله شيء. ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ ﴾ ولم يكن شيء غيره قبله جَلَّ جلاله. ﴿ وَٱلْـَٔاخِرُ ﴾ فليس بعده شيء سبحانه وتعالى. ﴿ وَٱلظَّـٰهِرُ ﴾ فليس فوقه شيء جَلَّ في علاه ﴿ وَٱلْبَاطِنُ ﴾ فليس دونه شيء عَزَّ وجل. وورد في صحيح مسلم قوله صلى الله عليه وسلم (اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء. اقض عنا الدين، واغننا من الفقر)[١] وهذا البيان هو بيان عظيم من الله تعالى عن ذاته الكريمة، التي استوفت أن الله تعالى قبل كل شيء، بلا ابتداء، وبالتالي فليس شيء قبله، وأن البقاء لله وحده لا شريك له عَزَّ وجل. وأنه صاحب العلو والعزة والرفعة والغلبة والقهر، فليس هناك شيء أرفع منه جَلَّ جلاله. والعالم ببواطن الأمور، فليس هناك ما يخفى عليه تبارك وتعالى، إذ ليس دونه شيء تبارك وتعالى.

ثم يتتابع البيان العظيم في إظهار علمه تبارك وتعالى، الذي أحاط بكل مخلوقاته. فقال الله تعالى ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ فإن ربكم وحده لا شريك له بكل ما خلق عليم. فاستوفى علمه عَزَّ وجل الإحاطة التامة بكل شيء، فاستقصى كل حدث، وكل أمر، وكل قول، وكل فعل، وكل حركة، وكل علة، وكل سبب، وجميع ما في الضمائر، وما أخفته الصدور، وما توسوس به النفوس. وأن كل ما يخفى على المخلوقين فإنه لا يخفى على

(١) مسلم، صحيح مسلم، برقم (٢٧١٣)

الله عَزَّ وجل. فهي دلالة قد استقصت وأحاطت كل شيء بالعلم، واستوفته بالمعرفة التامة، والقدرة الكاملة. فسبحان الله العلي العظيم الذي أحاط بكل شيء علماً وقدرة.

ثم يخبر تبارك وتعالى عن عظمته وجلاله، وعظيم خلقه، وعن مدة وزمن خلقه للسماوات والأرض، فيقول تبارك وتعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۖ وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ إن ربكم أيها الْمُخَاطَبون قد خلق السماوات والأرض بقدرته في ستة أيام. ثم أخبر باستوائه على العرش ﴿ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ﴾ الذي هو سقف المخلوقات، فجميع المخلوقات هي دون العرش وأسفله. فبعد خلقهن استوى على عرشه جَلَّ جلاله. استواء يليق بجلاله وعظمته وسلطانه، وهو العرش الذي يسع السماوات والأرض، وما فيهما، وما بينهما، استواء يليق بعظمته وجلاله وقوة سلطانه سبحانه وتعالى.

وقد بدأ سبحانه وتعالى هذا البيان الكريم بتأكيد خلقه للسماوات والأرض بعد أن ذكر تسبيحها له جَلَّ شأنه فيما سبق من مطلع السورة واستهلالها، ثم ذكر جَلَّ جلاله مُلكه لها، ثم انتقل البيان إلى الإخبار بخلقه عَزَّ وجل لها ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ﴾ فهو الذي أنشأ السماوات والأرض، ودلالة كلمة ﴿ خَلَقَ ﴾ تفيد معنى الإيجاد والإنشاء ابتداء، وفي هذا لفت الانتباه إلى عظيم مخلوقات الله تعالى، وسعتها ورحابتها، ثم أخبر عن مدة خلقها ﴿ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ﴾ ذكر ابن جرير وغيره رحمهم الله تعالى: أن الأيام الست هي: يوم الأحد، والإثنين، والثلاثاء، والأربعاء، والخميس، وجُمع الخلق في يوم الجمعة[١] وفي يوم الجمعة خُلق آدم عليه السلام، ويوم السبت لم يقع فيه خلق، لأنه اليوم السابع، ومنه سُمي السبت، وهو القطع[٢] ولله تعالى الحكمة في تقدير ما يشاء من الأيام والأوقات، وهو قادر على خلق ما خلق في لحظة، ولكن ليظهر للخلق بهذا التدبير حكمته وحلمه، سبحانه وتعالى، فله الملك، وله الحكمة في عدد تلك الأيام، وفي كل أمر وشأن.

ثم قال تعالى ﴿ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ﴾ قال السعدي رحمه الله تعالى: ﴿ ٱسۡتَوَىٰ ﴾ تبارك وتعالى ﴿ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ﴾ العظيم، الذي يسع السماوات والأرض، وما فيهما، وما بينهما، استواء يليق بجلاله وعظمته

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٤٥/١٠)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢٢٩/٢)

وسلطانه[١] والإنسان بطبعه يستوعب دلالة النص، ولكن لا يستطيع أن يدرك هيئة وصورة ما غَيَّبَهُ اللهُ تعالى عنه، وهنا تأتي حقيقة الإيمان بالغيب من غير تكييف، ولا تشبيه ولا تمثيل، ولا تعطيل. فإن الله تعالى ليس كمثله شيء، كما قال جَلَّ ثناؤه في سورة الشورى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ فليس هناك شبيه ولا مثيل لربكم في كل شيء، فاستوعب النفي إثبات الكمال الذي لا يُقاس بأحد من خلقه، واستوعب النفي المماثلة في الخلق والإيجاد والتدبير والقهر والسلطان، وفي الأسماء وفي الصفات الجليلة. ليتعلم العبد بهذا البيان ألا يقيس صفات وأفعال الله تعالى وقدرته على شيء من خلقه.

ثم يُظهر تبارك وتعالى في هذه الآية شيئاً من دلائل إبداعه في خلقه، فيقول عَزَّ وجل ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ إن الله تعالى الحكيم الخبير ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي: ما يدخل في جوفها من مياه الأمطار، والبذور، وما يُدفن فيها من الأموات، وما يُدفن فيها من الكنوز، وما يدخل فيها من الحشرات والهوام، وغيرها مما لا يعلمه إلا الله تبارك وتعالى، لأن الولوج هو الدخول في الشيء. وكذلك يعلم ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ﴾ من النباتات، ومن المياه والمعادن التي تُخْرَجُ منها، والكنوز التي دُفِنت فيها، ومن الهوام والحشرات، وغيرها مما لا يعلمه إلا هو عَزَّ وجل. وكذلك يعلم ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ من الملائكة، والأمطار، وما يقضي به جَلَّ جلاله في الأرض ومن فيها ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ أي: وما يرتفع ويصعد إلى السماء، من الملائكة، والأعمال، والدعوات، والأرواح، وغير ذلك مما لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى. مما يفيد عليكم أن تعلموا أن ربكم لا تخفى عليه خافية، وأنه هو الذي يدبر الكون كله بإرادته، وعلمه وحكمته، فلا يخفى عليه شيء مما ظهر فيها وما بطن. فأطيعوا وامتثلوا لربكم وفق هذا البيان من العلم والمعرفة بربكم جَلَّ جلاله. وأن من مستلزمات ذلك أنه يجب أن يَهاب ويَخاف الإنسان ربه عَزَّ وجل، وأن يطيعه، ويعبده، ولا يشرك به شيئاً، وأن يمتثل لرسوله صلى الله عليه وسلم. وأن يرجو ما عند ربه تبارك وتعالى من خير الدنيا والآخرة.

وبعد بيانه سبحانه وتعالى لعظيم علمه وإحاطته بالكون كله، ينبه عباده بعد ذلك، ويلفت انتباههم إلى ما يخصهم، فيقول عَزَّ وجل ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ أي: يشاهدكم، ويعلم بما يحصل منكم، وأنه رقيب عليكم، وبما يكون من أعمالكم، وأقوالكم، وما تضمرونه في أنفسكم، وما تنونه، وما تتناجون به، أينما كنتم، وحيثما كنتم، وسواء في اجتماعاتكم أو في خلواتكم، وفي جميع الأمكنة والأوقات، وسواء

(١) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (١١٨/٢)

كنتم بالليل أو كنتم بالنهار، فلا شيء يحجبكم عنه عَزَّ في علاه. وبالتالي راقبوه في السر والعلن. مما يعلم ويربي في المؤمن مراقبة الله تعالى في جميع أحواله وشؤونه. وأن يضبط سلوكه وأعماله وأقواله، ونواياه وفق شريعة الله تعالى، ومراده عَزَّ وجل. فإن ذلك العلم يجعل القلب المؤمن يقظاً، بل ويجعله يحاسب نفسه في الظاهر والباطن، وفي العلانية وفي الخفاء وفي الخلوات، وفي الليل والنهار. فإنه يجعل من المؤمن شخصية مستقيمة في كل شيء.

ثم يؤكد تبارك وتعالى ذلك ببيان ما يخصه عَزَّ وجل من الأسماء والصفات، فيقول جَلَّ شأنه ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ فربكم بصير بما يكون من أعمالكم التي تقومون بها. والبصير هو الذي يرى كل شيء، فلا يغيب عنه شيء من أحوال الكون، وأحوال جميع خلقه على كثرتهم وتعددهم وتنوعهم، واختلاف أماكنهم. وبالتالي لا يخفى ولا يغيب عليه عَزَّ وجل شيء من أحوال الناس، وحاجاتهم، فيعطي كلاً ما يستحقه في الدنيا والآخرة. وفي هذا تحذير من مخالفة شريعة الله تعالى، وتحضيض على الطاعة، فإن الله تعالى يعلم ما يكون منكم فيثيبكم، مهما كان الشأن قليلاً أو كثيراً. وهو البصير بحاجاتكم، وبما تطلبون وتسألون، فيعطيكم ما يشاء مما يشاء، وفي ذلك حث لهم على الطاعة والامتثال وسؤال ربهم حاجاتهم.

وكذلك هو تهديد لمن يخوضون في الباطل، ومن يكيدون لدينه، وللمؤمنين، فإنه سبحانه وتعالى يسمع كل شيء، ويرى كل شيء، فلا يعزب عن علمه تبارك وتعالى مثقال ذرة ولا أدنى من ذلك، بل إنه محيط بكل شيء علماً وقدرة وتصريفاً. مما يقوي عزيمة المؤمنين أمام الباطل، وأمام أعدائهم، وأمام مكائدهم. فيعلمون أنه لا يخفى عليه عَزَّ وجل شيء من أعمالهم، وأعمال ونوايا غيرهم. فيقوى بذلك التوكل عند المؤمن، وتقوى الشجاعة القلبية في كل شأن، سواء تجاه بذل المعروف والإحسان، والإقدام عليه، أو فيما يتعلق في مواجهة الباطل بجميع أنواعه وأحواله. فهي قوة من كل وجه للمؤمنين، وتحذيراً لغيرهم من ربهم سبحانه وتعالى.

ثم يكرر الله تعالى بيان كمال ملكه للسموات والأرض، بما يفيد التأكيد، ومزيد التعليم. ومضيفاً إلى ذلك أن مرجع تدبير الأمور له عَزَّ وجل. فيقول جَلَّ شأنه ﴿ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴾ إن لله ربكم مُلك السماوات والأرض، فإنها له وحده وليس لغيره فيها شيء، ليتقرر بذلك بطلان الشرك، ونفي الشريك، مما يترتب عليه كمال توحيده، وإفراده بالألوهية، والربوبية، والعبادة. فإن لله سبحانه وتعالى جميع ما خلق من السماوات وما فيها من مخلوقات، وله الأرض وما فيها من مخلوقات، فله الملك كله، وله الخلق كله، وبالتالي له كمال التدبير، ووجوب الطاعة. وفي هذا تذكير وبيان وتعليم وتعريف بحقيقة الوجود بأنه له عَزَّ وجل وحده لا شريك له، وإزالة جهل كل جاهل بها وعنها. فله وحده سبحانه وتعالى جميع ما خلق من السماوات وما فيها من مخلوقات، وله الأرض وما فيها من مخلوقات، فله الملك وله الخلق، وبالتالي له كمال التدبير، ووجوب الطاعة.

ثم يؤكد سبحانه وتعالى حقيقة ما يدور في الكون بأن مرجعه إليه عَزَّ وجل. فقال تعالى ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴾ فإن الأمور ونتائجها راجعة إليه سبحانه وتعالى، تدبيراً وحكماً ومآلاً، بما يزيد من ثقة المؤمنين من أنه لن يكون إلا ما أذن الله تعالى به. مما يغرس في قلب المؤمن أن الأمور ونتائجها عائدة إلى الله تعالى، فيطمئن قلبه على ما يحدث، وما سيحدث، ويتقبل بذلك النتائج، ليقينه أنه لم ولن يحدث خلاف حكمة وإرادة الله تعالى وتدبيره عَزَّ وجل.

ومن دقائق البيان أن الله تعالى جعل الأمور كلها راجعة إليه، حيث وردت الأمور بصيغة الجمع ﴿ ٱلۡأُمُورُ ﴾ لتستوفي أمور كل شيء، والجميع ومجريات الكون كله، ومن ذلك شأن العباد جميعاً، فإنها عائدة له حكماً وحكمة وإرادة، ومآلاً. فإنها لا تعود إلى مشيئة وإرادة غيره، بل لمشيئته وحُكمه وحكمته وإرادته عَزَّ في علاه، ليستوفي كل فرد جزاء ما كان منه. مما يبعث الطمأنينة بأنه لن يكون في الكون خلاف تدبير ومشيئة الله تعالى. كما أن في هذا تطمين للرسول صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين، وكذلك فيه تهديد للمشركين، بأن شأنهم وأمرهم ومآلهم راجع إلى الله تعالى، وليست عائدة إلى مشيئة وإرادة غيره، فلا تحسبون أنكم في معزل عن حكم وحكمة وإرادة الله تعالى ومشيئته.

ويعتبر قوله تعالى ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴾ قاعدة عظيمة في تحقيق الاستقرار والطمأنينة النفسية للمؤمنين الذين يستحضرونها في شؤونهم. فإذا أدرك المؤمن أن الأمور راجعة إلى الله تعالى تحقيقاً، وتأخيراً، وتدبيراً، وتبديلاً وتأجيلاً ومنعاً، كان أثر ذلك إيجابياً عليه في مواجهة الأمور ومعالجتها. فإن استقوت الأمور أمامه امتناعاً تذكر قوله تعالى ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴾ وإن رأى الأمور تجري امتثالاً لمراده، قال بما قاله سبحانه وتعالى ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴾ وإن وقف غيره ضد مراده، أدرك أنه لن يحصل ولن يسير إلا ما أراده الله تعالى، فقال في نفسه ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴾ وإن رأى نفسه أو غيره خائفاً من شأن، وعظه ووعظ نفسه بقوله عَزَّ وجل ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴾ وإن تكالبت الأمور على غيره، أرشده إلى قوله تعالى ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴾ فإن سعادة المؤمن في جميع شؤونه أن يتذكر ويستصحب دائماً قوله تعالى ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴾ فما أجمل أن تعود كل الأمور إلى العالم بما يصلح وما لا يصلح للعباد. فعلمه أبعد وأصح من فهم العبادّ في إدراك المنافع، وما يعقبها من مغبات الأمور، وما سيجري وراءها من المجريات والأحداث. اللهم قَدِّر لنا الخير، واختاره لنا في كل شأن، وارضنا به، وارض عنا برحمتك وكرمك وفضلك يا رب العالمين.

ويتكرر بيان الإيلاج الذي يُظهر للمخاطبين عظيم تدبيره سبحانه وتعالى، فيقول عَزّ جاهه وتعاظم سلطانه وتدبيره ﴿ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۚ وَهُوَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ يبين سبحانه وتعالى كمال قدرته؛ وقوة نُصْرَتِهِ لمن بُغِي عليه، بما يراه الْمُخَاطَب من تَحَكُّمَهُ عَزَّ وجل في الليل والنهار، فيولج الليل في النهار، ويولج النهار في الليل على وتيرة دقيقة في أوقاتها. والتي توضح وتبين قوته وقدرته، وعظيم سلطانه عَزَّ في علاه سبحانه وتعالى، فإن الذي يتحكم في هذا الشأن العظيم، بهذه العظمة وهذه القدرة، فإنه ﴿ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ فيعلم ما يختلج في صدوركم من أي شيء أنتم فيه، فاسألوه والتجئوا إليه، وخافوه.

فقد بدأ البين الكريم بعظيم مظاهر الكون، من إيلاج الليل في النهار، وإيلاج النهار في الليل. وفي ذلك شَدُّ الانتباه عند الْمُخَاطَب بجملة ﴿ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ ﴾ والتي تفيد لفت الانتباه للحدث الكوني العظيم الذي يشاهده ويعايشه الإنسان طيلة حياته. ألم تلاحظ وتشاهد أيها الإنسان هذه القدرة العظيمة، وهذا التسخير المبهر، وهذه الدلالة من هذه الآية العظيمة، إذ يُدخل ربك جزأ من الليل في النهار، وجزأ من النهار في الليل بدقة متناهية. إذ أن الولوج، هو: إدخال الشيء في الشيء، ومنه: ولج فلان منزله أي دخله. أي يُدخل ما نَقَص من ساعات الليل في ساعات النهار، فَيُزَاد من نقصان هذا في زيادة هذا. ويُدخل ما نَقَص من ساعات النهار في ساعات الليل، فتزيد ساعات الليل بما نقص من ساعات النهار. حتى يكون الليل خمس عشر ساعة، والنهار تسع ساعات، ويُدخل النهار في الليل، حتى يكون النهار خمس عشرة ساعة، والليل تسع ساعات.[١] ويشمل ذلك كذلك دلالة تدرج دخول الليل في النهار، وتدرج دخول النهار في الليل بدقة غاية في الإعجاز. فإن الذي أولج الليل في النهار، وأولج النهار في الليل بهذه العظمة الرهيبة؛ فإنه هو الذي يستحق العبادة وحده لا شريك له، وأنه القوي، فلا يعجزه شيء أبداً، إذ يقول للشيء: كن، فيكون وفق ما أراد سبحانه وتعالى.

وأنه هو الذي يعلم ما بدواخلكم ﴿ وَهُوَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ فإن ربكم الله تعالى عليم بما تضمره الصدور، وتتكتم عليه. وبالتالي هو عالم بكل شيء. وقد أفاد هذا البيان المبالغة في العلم إلى أقصاه ومنتهاه، فيعلم ما يغيب في السماوات والأرض، حتى ما تكنه الضمائر، وما يختلج وتتحفظ عليه صدور البشر. وقد أفاد ﴿ وَهُوَ ﴾ التخصيص، بأنه هو لا غيره ﴿ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ وورد ﴿ عَلِيمُۢ ﴾ بصيغة المبالغة، ليفيد غزارة ودقة العلم إلى كمال منتهاه، مع قوة التحذير من الاشتغال بالشر. وهو تدرج حكيم في البيان. وترابط

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٣٠٤/٥-٣٠٥)

دقيق بين دقائق الإيلاج والتداخل، وبين الولوج بالعلم والمعرفة لِمَا يدور ويختلج في الصدور. فهو بيان عظيم، لعلم عظيم، وسلطان عظيم.

فإن ربكم هو العليم بما في صدور العالمين، فيعلم ما تخفيه الضمائر من كل أحد من العباد، فيعلم الكاذب من الصادق، والمنافق والمدلس، والحاقد والحاسد والمستكبر والكاذب والصادق، فلا يخفى عليه منكم شيء. وفي هذا ترهيب وتطمين. فهو ترهيب للمكذبين بأن الله تعالى مُطَّلع على قلوبكم فيعرف ما أنتم عليه من الكذب والنوايا الخبيثة. وهو تطمين لأهل الإيمان من أن الله تعالى مُطَّلع على ما في قوبكم، فلا يضركم افتراء المفترين عليكم. فتعاملوا مع الله تعالى بما يَعلَمُ منكم، وليس بما يقول الأعداء عنكم. وهو تثبيت لكل مؤمن ما بقيت الحياة الدنيا.

وتفيد دلالة ﴿وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أن فيها تهذب لنوايا المؤمن، إذ تربي فيه البعد عن نوايا السوء، وتجعله يعالج ما يختلج في الصدر من السوء، وعدم إظهاره إلى حيز الفعل والتنفيذ، لأنه يعلم بأن الله تعالى ﴿عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ كما أن فيه معالجة لأحوال المؤمن عندما يروم فعلاً من الخير ولا يستطيع، فيدرك أن الله تعالى ﴿عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ ويدرك أن امتناعه كان لعجزه. بما يفيد أن العلم بأسماء الله تعالى وصفاته تربي المؤمن على الخير، وعلى اجتناب الشر والسوء. وترفع طمأنينة القلب عنده، لأنه يعلم بأن ما يختلج في صدره من خوف الله تعالى، ومحبته أن الله تعالى مطلع عليه، فيعلم منه ذلك حق العلم. وأن ما يختلج في صدره من أمنيات، أو من شكوى، فإن الله تعالى بذلك عليم خبير، فليرفع يديه لربه سائلاً، ومستجدياً، خوفاً وطمعاً. فإن دلالة ﴿عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ عظيمة المعاني والدلالات والأثر.

﴿ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ
(٧) وَمَا لَكُمۡ لَا تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ لِتُؤۡمِنُواْ بِرَبِّكُمۡ وَقَدۡ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ (٨)
هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ ءَايَٰتِۢ بَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ
(٩) وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ
ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱللَّهُ بِمَا
تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ (١٠) مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجۡرٞ كَرِيمٞ (١١) ﴾

بعد أن تناولت سورة الحديد فيما سبق من مطلعها موجبات الإيمان، وذلك بإظهار الدلائل والبراهين على عظمة الله تعالى، وجلال سلطانه، وعظيم مخلوقاته، وقوة وعظمة تدبيره، وأن الكون كله يسبح له سبحانه

وتعالى، فإن البيان ينتقل بعد ذلك إلى ما أمر الله عَزَّ وجل به جميع عباده، من الإيمان به جَلَّ شأنه وبرسوله محمد صلى الله عليه وسلم، والإنفاق مما استخلفهم فيه. فقال تعالى ﴿ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ ﴾ يا أيها الْمُخَاطَبون جميعاً من الإنس والجن آمنوا ﴿ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ فصدقوا واعتقدوا أن الله ربكم، وأن محمداً رسوله صلى الله عليه وسلم. وقد بدأ الخطاب بفعل الأمر ﴿ ءَامِنُواْ ﴾ من غير تحديد لفئة محددة. ليدل ويفيد أنه لجميع من يخاطبهم القرآن من الإنس والجن. وكونه فعل أمر، فإنه يقتضي الوجوب القطعي. وكونه قد ورد بعد سرد الحجج والبراهين ما يفيد أنه لا يسع أحد منكم ألا الإيمان بالله تعالى وبرسوله محمد صلى الله عليه وسلم. وبالتالي فإن مَن كفر فقد جحد الحق الواضح المبين. فلا عذر لأحد في عدم الإيمان. وهذا من بلاغة السياق لكلام ربنا رَبُّ العالمين تبارك وتعالى.

وقد ورد الأمر بثلاثة أمور في وقت واحد، لبيان أهميتها، وأهمية ترابطها وتظافرها، وعلاقتها ببعض. وهي: الإيمان به سبحانه وتعالى، والإيمان برسوله محمد صلى الله عليه وسلم، والإنفاق. فبدأ الأمر بأهم قضايا العباد، وهي الإيمان ﴿ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ ﴾ آمنوا بربكم الذي أخبركم بدلائل ربوبيته وألوهيته، وعظيم خلقه، وتدبيره، وسعة علمه الذي يعلم ما في الصدور، وما يلج إلى السماء، وما ينزل منها. وأن الكون كله يسبح له سبحانه وتعالى، وينزهه عما لا يليق به جَلَّ جلاله. والإيمان هو التصديق بالله تعالى، وبما جاء من عنده بالدليل والبرهان.

ثم عطف جَلَّ شأنه الإيمان برسوله صلى الله عليه وسلم على الإيمان به. فقال تعالى ﴿ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ وهو محمد صلى الله عليه وسلم، الذي أبلغكم بهذا القرآن العظيم، والذي يحمل كمال وتمام الحجج والبراهين. مما يبين تعظيم منزلته عليه الصلاة والسلام بهذا العطف في البيان. كما يبين أن من لم يؤمن به عليه الصلاة والسلام فقد كفر، وجحد ما أمر الله تعالى به، من الإيمان بالرسول محمد عليه الصلاة والسلام.

ثم عطف سبحانه وتعالى الإنفاق على الإيمان، فقال جَلَّ شأنه ﴿ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِ ﴾ أنفقوا مما استخلفكم ربكم فيه من الأرزاق. وقد استهل البيان بفعل الأمر ﴿ وَأَنفِقُواْ ﴾ الذي يقتضي الوجوب ﴿ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِ ﴾ مما أعطاكم من عموم الأرزاق. ومن كرمه تبارك وتعالى أنه لم يأمر بإنفاق كل ما عندهم، بل ورد الأمر بصيغة التبعيض ﴿ مِمَّا ﴾ ليس كله بل منه، ومن غير تعيين وتقدير لمقدار النفقة، ليتناسب مع تفاوت حال المنفق وحال الذي يُنْفَقُ فيه وعليه، وليظهر بذلك مقدار سخاء الإنسان وقوة إيمانه، ومحبته لدينه، وإيمانه بأن الله تعالى سيخلفه بخير منه. ثم جعل المأمورين بالنفقة منه، بمثابة الوكلاء

فيما عندهم من الأرزاق. فحالهم فيه هو كحال الوكيل، الموكل إليه الشأن في التصرف فيما هو عنده، وتحت يده. بما يفيد أن المالك الحقيقي هو الله سبحانه وتعالى. فهو الذي استخلفكم فيه ﴿مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ فأعادهم إلى لأصل، بأن ما عندكم من الأرزاق هو مُلك لله تعالى، وأنه هو الذي مَكَّنَكُم وملككم ما أنتم فيه من خير. فإن الفضل عائد لله تعالى وليس لكم. مما يعلم الإنسان أن كمال الملك لله تعالى، وأنه هو المعطي، وهو الميسر لأسباب الرزق. فتعامل أيها المؤمن مع ما عندك من الأرزاق على هذا الفهم، الذي مركزه وركيزته الإيمان بذلك، وأصله الإيمان بالله تعالى، وبرسوله صلى الله عليه وسلم.

ثم يخبر تبارك وتعالى عن حال من جمع بين الإيمان والإنفاق، فقال تعالى ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ فالذين صَدَّقُوا بما أَمَرتُ به من الإيمان بالله تعالى، وبرسوله صلى الله عليه وسلم ﴿وَأَنفَقُواْ﴾ فبذلوا بالعطاء مما استخلفهم ربهم فيه، فإن ﴿لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ فإن لهم من الله تعالى الثواب العظيم. فقد كافأ الله تعالى من جمع بين هذه الأمور الثلاثة بثواب جزيل، إلى درجة أن وَصَفَهُ عَزَّ وجل بصفة الأجر الكبير. بل من دقائق البيان أنه سبحانه وتعالى لم يحدد نوع ولا كمية هذا الأجر، فجعله مطلقاً مع وصفه بالكبير، بما يفيد التعظيم لهذا الأجر، وأنه مما لا يخطر ببال مَنْ ناله وحصل عليه. كما أنه سبحانه وتعالى لم يحدد موعده ولا مكانه، ليشمل دار الدنيا ودار الآخرة، ليتبين عظيم كرم الله تعالى. وفي ذلك قوة الحث على الإيمان والإنفاق. وفي اشتراط الإيمان مع النفقة ما يفيد أن من أنفق ولم يؤمن فليس له من الأجر شيئاً أبداً. وليدل على منزلة الإيمان وأهميته في قبول العمل.

كما أن من دقائق البيان أن دلالة ﴿جَعَلَكُم﴾ من قوله تعالى ﴿مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ تفيد أن الله تعالى هو الذي ﴿جَعَلَكُم﴾ وليس أنتم جعلتم أنفسكم، ولا غيركم جعلكم، بل إنه تمكين من الله تعالى لكم. لِيُعَلِّم ويُرَبِّي المؤمن على أن الخير الذي هو فيه هو من تمكين الله تعالى له، فليحمد الله تعالى عليه، ويشكره، ويطلب من ربه الغني الْمُغْنِي ما يحتاجه، فهو المعطي سبحانه وتعالى. كما يفيد أن على المؤمن أن يتجرد من الحول والقوة، فينسب لله تعالى الإنعام، وأنه بفضل الله عَزَّ وجل. وأن يتواضع ولا يتكبر على غيره، ولا يظن في نفسه الحرفة والمهارة، فحتى أسباب الرزق والتحصيل هي توفيق من الله تعالى. كما يفيد هذا أن في الإنفاق زيادة في الخير والبركة. وأن من أراد أن يكثر خيره فلينفق منه في أوجه الخير، بالإخلاص لله عَزَّ وجل.

ومن دقائق البيان كذلك وفوائده أن الله تعالى لم يحدد نوع المستخلف فيه ﴿مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ ليشمل جميع أنواعه، من المال، ومن جميع أنواع الأرزاق، والمتاع الذي لا حصر لمفردات

أنواعه. فاستوعبت بهذا السياق جميع أنواع الأرزاق من غير استثناء. وهذا من الإعجاز البياني للقرآن الكريم، والذي ارتقى إلى درجة تعجيز الإنسان من أن يأتي بمثله، ولو تعاضدوا وتعاونوا على ذلك جميعاً. فنحمد الله تعالى على ما أعطى وأنعم. اللهم اجعلنا من المنفقين بسخاء فيما استخلفتنا فيه يا رب العالمين، وزدنا وأكرمنا.

ثم يتوجه البيان الكريم بسؤال لمن لم يؤمن من بعد أن أظهر الله تعالى لهم الحجج والبراهين. فيقول الله تبارك وتعالى ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فما الذي يمنعكم من الإيمان بالله ربكم، والرسول صلى الله عليه وسلم يدعوكم للإيمان بربكم، مبيناً لكم الحجج والبراهين على صحة ما جاءكم به من الحق الظاهر المبين؟ ﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: أخذ اللهُ تعالى الميثاق منكم حين خروجكم من بطون أمهاتكم ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: مصدقين بالحجج والدلائل التي أتاكم بها رسوله صلى الله عليه وسلم. فهو سؤال تقريري، يقررهم بأن جميع الحجج والدلائل والبراهين قائمة أمامكم. ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ﴾ ورسول الله محمد صلى الله عليه وسلم يدعوكم بالبراهين والحجج إلى الإيمان. فلم يبق إلا أن تؤمنوا. وبالتالي فما الأمور التي تمنعكم وقد قامت عليكم البراهين والدلائل والحجج؟ مما يبين ويؤكد أنه لا حجة لكم في عدم الإيمان. خاصة ﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ﴾ وقد أخذ الله منكم ميثاقه. لأن كل مولود يولد على الفطرة. مما يفيد أن المانع والتنصل من التصديق هو بسبب العناد والاستكبار والحسد.

وقد ورد في سورة الأعراف قول الله تعالى عن هذا الميثاق ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ إذ استخرج ربك من ذرية بني آدم، من أصلابهم سلالة بعد سلالة، فأشهدهم، فشهدوا على أنفسهم بربوبيته، وأن الله تعالى هو ربهم وخالقهم، وأنه لا إله إلا هو وحده لا شريك له، فأجابوا على ما أشهدهم الله تعالى عليه، بتقريرهم واعترافهم على ما أشهدهم عليه سبحانه وتعالى من وحدانيته وربوبيته وألوهيته. فاستجابوا وشهدوا وقرروا شهادتهم لله تعالى بما أشهدهم عليه، أي: شهدنا بذلك يا ربنا، فأنت ربنا ومالكنا وإلهنا ومعبودنا، مما يفيد ويدل على أن الله تعالى جبل وفطر بني آدم كلهم على ذلك. وهذه نعمة عظيمة ومِنَّة كريمة من الله تعالى على بني آدم كلهم، بأن فطرهم على ربوبيته وألوهيته ووحدانيته، كما جاء في الحديث

من قوله صلى الله عليه وسلم (كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه أو يمجسانه)[1] فهذا الميثاق من الله تعالى هو ما يجده كل إنسان في نفسه أن ربه هو الله سبحانه وتعالى، وأن لهذا الكون رب واحد هو الخالق له، وبالتالي فإن حصل انحرف فإن هذا الانحراف بسبب المخالطة والتأثير والتربية؛ كما جاء في الحديث السابق من قوله صلى الله عليه وسلم (كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه أو يمجسانه) وبالتالي فإن هذا الميثاق الفطري الجبلي مانع لكل عذر. حتى لا يقول أحد أنني كنت غافلاً عن هذا.

وبناء عليه فإن كنتم مؤمنين على ما فطركم الله تعالى عليه، وعلى الحجج التي أوردها لكم رسوله صلى الله عليه وسلم فآمنوا ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: مصدقين بالحجج والدلائل التي أتاكم بها رسولكم صلى الله عليه وسلم. فقد وضع الله تعالى عباده أمام الحق المبين، بحيث لا عذر لمن بقي على كفره، فإن مصيره النار وبئس المصير.

ثم يبين الله تعالى عظيم رحمته، ومراده لهم، فيقول تبارك وتعالى ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ فإن ربكم هو الذي ينزل على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم البينات من الحجج والدلائل، من أجل أن يخرجكم من ظلمات الكفر وعذابه، إلى نور الإسلام وما يتبعه من دخول الجنان. فإن ربكم رؤوف ورحيم بكم، ولولا ذلك لَمَا أنزل البينات والحجج على رسوله صلى الله عليه وسلم. مما يبين رحمة الله تعالى بعباده، إلا أن بعضهم أخذه الكبر والاستعلاء والحسد. مما يبين عظيم خطر الكبر، ومحبة الاستعلاء، فإنه يصد الإنسان عن الخير.

وقد ورد البيان العظيم بأسلوب التخصيص والتعيين ﴿هُوَ ٱلَّذِى﴾ هو ربكم، لا غيره الذي ﴿يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ﴾ محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ءَايَٰتٍۭ﴾ أي: حجج، وبراهين، وأعظمها القرآن، وانشقاق القمر، وغيرها من الأدلة. وقد وصفها سبحانه وتعالى بقوة البيان وظهوره ﴿ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ واضحات جليات، لا تحتاج إلى تفكر وتأمل، بل تستوجب سرعة الانقياد من قوة دلالتها.

ثم يذكر تبارك وتعالى الهدف والغاية من ذلك، وهو ابتغاء مصلحتهم ﴿لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ ليخرجكم مما أنتم فيه من ظلمات الكفر. مما يبين أن الكفر ظلمات، لما فيه من المتاهات التي تعصف بالإنسان في كل اتجاه من اتجاهات الباطل. فلا شيء يضبط له تصرفاته إلا هذا الدين العظيم، فخذوه وتمسكوا

---

(1) البخاري، الجامع الصحيح (١/٤٢٤) برقم (١٣٨٥)

به. فإن من رحمته جَلَّ جلاله بكم هو إرادته أن يخرجكم بهذا الدين من هذا الظلام الحالك ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾ هو نور الإسلام، الذي ينير لمن دخله طريق الهدى، الذي يوصله إلى الجنة. فهو النور الذي يبدد ظلام الكفر، ويدحره بقوة نوره، الذي يضبط حياة الإنسان، ويجعل له هدفاً وغاية في الدنيا وفي الآخرة. فإنها نعمة من الله تعالى الرحمن الرحيم. ثم يختم الله تعالى هذا التوجيه الكريم ببيان عظيم صفاته ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ فإن الله تعالى بكم لرؤوف ورحيم بحالكم، إذ يدعوكم ويعظكم، وينذركم، ويبعث رسوله صلى الله عليه وسلم بالدلائل والحجج، ليخرجكم من ظلمات الكفر إلى نور الإسلام.

وقد أفاد قوله تعالى ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ التخصيص برأفته ورحمته لكم ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمۡ﴾ أنتم أيها العباد، بما يدل على العناية منه عَزَّ وجل بكم، فرحمته لكل شيء عَزَّ وجل، ولكن خص عباده بذلك لإظهار العناية والتكريم والتحضيض والترغيب لهم على الإيمان ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ والرأفة تحمل دلالة الشفقة المبالغ فيها. فهي أعلى معاني الرحمة. بما يفيد أن الله ربكم لا يريد لكم ظلام الكفر، وعذاب النار، بل يريد لكم الخير. وأن من صفاته كذلك أنه ﴿رَّحِيمٞ﴾ بكم. وهي تدل على المبالغة في الرحمة، ورحمة الله تعالى في الدنيا بعضها شامل للمؤمنين والكافرين وللدواب ولكل شيء، كإنزال الغيث، وإنبات الزروع. ومنها ما هو خاص للمؤمنين في الدنيا والآخرة. وقد ورد بيان ذلك بنون التوكيد ﴿وَإِنَّ﴾ وكذلك بالتعيين والتخصيص ﴿بِكُمۡ﴾ وكذلك بحرف اللام الملتصق بالرؤف ﴿لَرَءُوفٞ﴾ مما يبين شدة العناية المتوافقة مع الاسمين والصفتين العظيمتين والجليلتين لله تعالى، بأنه رؤف رحيم.

فالرؤوف يعني: الكثير العطف والإحسان، والمخفف عن عباده ما لا يطيقون، فَيُسَخِّر لهم ما يرفع عنهم المشقة، ولا يكلفهم بالتكاليف الشاقة، وهي: غزارة الرحمة. وأما الرحيم فهي من صيغ المبالغة، التي تفيد كثرة الرحمة، أي: أن الله تعالى ذو الرحمة الواسعة، التي وسعت كل شيء. واللام في قوله تعالى ﴿لَرَءُوفٞ﴾ للتوكيد، فتعطي تأكيداً على ما دل عليه اسم الجلالة ﴿لَرَءُوفٞ﴾ من الإشفاق على الإنسان، وسواء من حيث عدم تكليفه بما يشق عليه من العبادات، أو من رفع المشقة عنهم بتسخير مخلوقاته لهم، من الأنعام وغيرها. والرأفة تحمل دلالة الإشفاق مع الرحمة، والرأفة أخص من الرحمة، والرحمة أعم من الرأفة، فتشمل جميع الخلائق. وقدم الأخص على الأعم للعناية والاهتمام، وتبيانا وتأكيداً لها.

وصفة الرؤف تحمل معاني مليئة بالدلالات العظيمة، منها ما ذكره ابن الجوزي رحمه الله تعالى: فالرؤف بمعنى الرحيم، والرأفة أبلغ الرحمة وأرقها. والرأفة أخص، والرحمة أعم.[١] فكيف وقد اجتمعت مع بعضها البعض ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ فمن رحمته ورأفته بالناس أن أرسل الرُسُل وأنزل الكتب، وبسط لهم الأرض، ورزقهم من كل خير، ولم يعجل لهم عقوبة الذنوب، لعلهم يرجعون ولعلهم يرشدون، ولعلهم يتوبون، ولولا ذلك لما بقي عليها أحد من كثرة المعاصي والتقصير في الطاعة، وقلة الذكر والشكر له تبارك وتعالى، وهذا عام للناس، فكيف والأمر متعلق بالمؤمنين، إنه رؤف رحيم بهم. وبالتالي كيف يُعصى وهو بالناس رؤف رحيم؟ وكيف يُشرك به وهو الرؤف الرحيم؟ وكيف لا يُشكر وهو الرؤف الرحيم؟ وكيف لا يُذكر ويُمَجَّد وهو الرؤف الرحيم؟ وكيف لا يتذلل له العبد وهو الرؤف الرحيم؟ وكيف لا يُدعى وهو الرؤف الرحيم؟ وكيف لا يُرجى وهو الرؤف الرحيم؟ وكيف لا يُطمع فيه وهو الرؤف الرحيم؟ وكيف لا يُستحى منه وهو الرؤف الرحيم؟ فلو رحم عبدٌ عبداً لاستحى منه، فكيف بمن رحمته هي السبب في تراحم العباد بينهم. فإنها صفات تستوجب الشكر لله تعالى من العبد ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ وفي الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى امرأة من السبي، قد تَحْلُبُ ثديها تسقي .أي تُرضع. إذ وجدت صبياً في السبي، أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته. فقال النبي صلى الله عليه وسلم (أترون هذه طارحة ولدها في النار؟ قلنا: لا، وهي تقدر على أن لا تطرحُه؟ فقال (الله أرحم بعباده من هذه بولدها)[٢] مما يستدعي محبة الله تعالى، ومجاهدة النفس في طاعته عَزَّ وجل.

وبعد أن حثهم سبحانه وتعالى ورغبهم في الإيمان يحثهم جَلَّ في علاه إلى النفقة في سبيله سبحانه وتعالى، فقال عَزَّ وجل ﴿ وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴾ ما المانع الذي يمنعكم من الإنفاق في سبيل ربكم، مع أنه هو المتفضل عليكم، وأن كل شيء عائد إليه؟ إنه سؤال عن علة الامتناع عن الإنفاق في سبيله؟ والشأن منكم أنه متناقض مع كون الذي أمركم هو الذي سيفنيكم جميعاً، فيكون ميراث السماوات والأرض له وحده لا شريك له ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ فكل شيء عائد إليه تبارك وتعالى. فإن نهاية الدنيا تُوضح وتبين لكم أنكم ستفقدون كل شيء في أيديكم، وتعودون إلى ربكم من دون شيء من أرزاقكم. فجاء الحث على النفقة في سبيله سبحانه وتعالى

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٤٠/١)

(٢) البخاري (٩١/٤) برقم (٥٩٩٩)

بأسلوب السؤال عن علة عدم الإنفاق، مع أن الله تعالى هو الذي يرزقكم، وله كمال الملك والعطاء. مع إعادتهم إلى حقيقة الفناء، بالعودة إليه سبحانه وتعالى، وهم متجردون مما كانوا يملكون في الدنيا، الأمر الذي يزول معه الامتناع والتمنع عن الإنفاق في سبيه سبحانه وتعالى. وهو أسلوب غاية في الحكمة التي تعالج عند المؤمن شدة تمسكه بالمال. بأن أعادته إلى الفناء والمآل الذي يؤمن به.

ثم بعضد سبحانه وتعالى هذا البيان الذي كان مداره حقيقة الدنيا وزوالها، يعضده بحقيقة التباين بين المبادرين بالإنفاق وبين المتأخرين أو الممتنعين عن الإنفاق. فقال تعالى ﴿ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ﴾ لا يستوي الإنفاق قبل وبعد فتح مكة. فهناك مفاضلة وتفضيل يلزم اغتنامها، فلا تُفَوِّتُون على أنفسكم مناقبها، ثم لا تدركونها ﴿ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ ﴾ لا يستوي من أنفق قبل فتح مكة. قاله ابن عباس رضي الله عنهما وجمهور المفسرين[١] ﴿ وَقَٰتَلَ ﴾ وجاهد مع رسوله صلى الله عليه وسلم، فإن ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً ﴾ فهؤلاء الذين أنفقوا قبل الفتح ﴿ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُواْ ﴾ أي: أنفقوا وجاهدوا مع رسوله صلى الله عليه وسلم من بعد الفتح. ولكن من رحمة الله تعالى، وكمال عدله أنه قال ﴿ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ أي: الجميع موعود بدخول الجنة، مع اختلاف الثواب.

ثم يحثهم سبحانه وتعالى على الاجتهاد في الطاعة من خلال بيان كمال علمه وإحاطته بعباده، فيقول عَزَّ وجل ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ فإن ربكم عالم بما يكون منكم من أعمال، ونوايا، وقدرات، فلا يخفى عليه عَزَّ وجل منكم شيء أبداً. بما يفيد عليكم أن تتعاملوا مع ربكم من خلال ذلك العلم والفهم. فربكم عالم بمواقع الأمور، وخفايا الأشياء. فمن كانت هذه صفاته المجيدة سبحانه وتعالى، فلا يغيب عنه شيء أبداً. وفي هذا الإخبار الدقيق ما يغرس في المؤمن، أو الْمُخَاطَب الانتباه، واليقظة، والتَّحَرُّص من التأخر عن المطلوب، والبعد عن فعل الذنوب، حتى من أصغر الصغائر. والتوقي منها بكل حذر، وكذلك بأن لا يحتقر من المعروف شيئاً أبداً، مهما كان في نظره قليلاً زهيداً، فإن الله تعالى يُثيب عليه، ويضاعفه أضعافاً مضاعفة. وفي هذا بيان لكمال قدرة الله تعالى ولطفه وعلمه الذي شمل جميع خلقه، في تحركاتهم، وأماكنهم، وإمكاناتهم، وقدراتهم. فلا يغيب عنه من خلقه شيء، وفي هذا العلم بأن الله تعالى خبير ما يُقوي إيمان العبد، ويغرس فيه الحرص، والاجتهاد في الطاعة، والبعد عن المعصية. فسبحان الله العليم الخبير.

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣٠١/٧)

فيا أيها الناس إن الله تعالى بكل ما يكون منكم عليم به، فلا تخفى عليه خافية منكم، ما ظهر منكم وما بطن. ليشمل ذلك السرائر والنوايا، وما اختلج في القلوب ولم ينطق به اللسان. مما يفيد احذروا من التقصير، ومن سيئات الأعمال، وعليكم بأطيب الأعمال والمسابقة إليها، فإنها لا تخفى على ربكم جَلَّ جلاله. وقد أفادت دلالة الخبير في قوله عَزَّ وجل ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ إحاطة علمه سبحانه وتعالى بظواهر أعمالكم وبواطنها. وأنه جَلَّ جلاله عالم بمواقع الأمور، وخفايا الأشياء. ففي ذلك ترغيب في عمل الصالحات مهما صغرت، وترهيب من المعاصي مهما خفيت وصغرت.

ومن دقائق البيان أنه بفضله سبحانه وتعالى جعل مناط الحساب على الأعمال دون ما تكنه وتوسوس به القلوب، إذ خص الأعمال فقط ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ بالرغم من علمه بما يُسر وما يوسوس العباد به في نفوسهم، وبما يبطنون، لإفادة أن المحاسبة كائنة على العمل، وما يتكلم به العبد، أما البواطن فإن لم تتحول إلى أعمال وألفاظ فلا تكون مما يحاسبكم عليه. قال صلى الله عليه وسلم (إن الله تجاوز لي عن أمتي ما وسوست به صدورها، ما لم تعمل أو تكلم)[١] فاحذروا أن يتحول شُح القلوب من الوساوس الرديئة إلى أعمال فعلية. وهذا التخصيص والقصر على الأعمال بالرغم من أن دلالة معنى الخبير ﴿خَبِيرٞ﴾ تشمل كمال العلم بالظاهر والباطن. فإن الله تعالى يعلم كل شيء، حتى دقائق ما يكون من العبد، مما يظهر منه، ومما يُسِرُّ به، كأعمال القلوب، والخواطر. فأوقع سبحانه وتعالى دلالة لفظ الخبير على أعمال العباد الظاهرة ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ وهذا من فضله وكرمه عَزَّ وجل.

فإذا علم وأيقن الإنسان بدلالة قوله عَزَّ وجل ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ جعل منه ذلك العلم العظيم، شخصاً وشخصية ملتجئة إلى الله تعالى في كل صغيرة وكبيرة، لأنه موقن بأن الله تعالى يعلم أمره وشأنه، وأنه به عليم خبير، فيفوض أمره إلى الله تبارك وتعالى. كما يجعل منه هذا العلم كثير الاستحضار لمراقبة الله تعالى له في جميع تصرفاته وأحواله، فيدفعه ذلك إلى الاجتهاد في السير على الجادة، خوفاً من معاقبة الله تعالى له. وطمعاً في أنه إذا عمل عملاً صالحاً أيقن أن الله تعالى يعلمه، وسيجزيه أجر ما صنع من الخير، فلا يحتقر معروفاً يقوم به، ولا يستخف بمعصية يمكنه القيام بها. فإنه عِلْمٌ عظيم، يربي في المؤمن الاستقامة، ويقوده للخير، ويمنعه عن الشر.

(١) البخاري، الجامع الصحيح (٢/٢١٥) برقم (٢٥٢٨)

بل إنها قاعدة تربي المؤمن على الاستقامة، فإن منعته نفسه أو مانع عن فعل خير وهو قادر عليه، قال لنفسه بقوله عَزَّ وجل ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ وإن استهواه أمر حرام قال لنفسه ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ وإن أراد غيره حراماً، ذكره بقوله تعالى ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ وإن أراد غيره الامتناع عن خير مقدور عليه، دفعه وحفزه بقوله تعالى ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ فمن صاحب هذا العلم في حياته صاحبه بالخير، ومنعه عن الشر والفساد، مما يبين عظيم نعمة القرآن الكريم في كل شأن من شؤون الإنسان. فالحمد والشكر لله العلي العظيم.

ولما أن القتال في سبيل الله تعالى يلزمه المال لتوفير العتاد، وما يحتاجه الجُنْدُ من طعام وشراب ولباس، وغيره مما لا غنى عنه للجهاد، حث الله تبارك وتعالى بأسلوب التشجيع على الإنفاق، فقال تعالى ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجۡرٌ كَرِيمٌ ﴾ فمن هذا الذي ينفق في سبيل الله تعالى فيعوضه ربه بأضعاف ما أنفق؟ وقد ورد الحث والتشجيع بصيغة السؤال الذي يحث ويشجع، ويستثير قلوب المؤمنين للمبادرة. فمن هو هذا الذي يُقرض الله؟ أي يُنفق في سبيل الله تعالى. فالذي يُقْرِض هو العبد، والمكافئ لهذا القرض هو الرب تبارك وتعالى. وهذا الإنفاق من العبد على صيغة الإقراض الْمُعاد، ولكن الإعادة هنا مختلفة عن إعادة البشر لبعضهم البعض، لأنها إعادة من مالك الملك. فالمفاضلة فيها عظيمة، بل ومربحة بلا حدود للمقرض.

واشترط لهذا الأمر صفة الإحسان ﴿ قَرۡضًا حَسَنًا ﴾ والقرض الحسن هو الذي يكون عن طيب نفس. ولفظة ﴿ حَسَنًا ﴾ تجمع كل جوامع الحسن في النية والإخلاص، وفي المقدار والنوع، وكذا طيبة النفس الممتلئة بالإيمان، والأدب والأخلاق في الإنفاق. ومنافية لكل ما هو ضد الإحسان وصفاته ودلالاته. مما يبين عظمة الأسلوب في القرآن، وعظمة الآداب والأخلاق. ويشمل حتى الإحسان للآخرين بأنواع الإحسان الذي لا حدود لمقداره، ولا لأنواعه، وحالاته. فإن الله تعالى يحب المحسنين.

ثم يبين الله تعالى مقدار المكافأة للمنفق ﴿ فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجۡرٌ كَرِيمٌ ﴾ فلم يحدده سبحانه وتعالى بأضعاف محددة، بل وردت على سبيل الإطلاق من غير تحديد. فليس ضعفاً واحداً، ولا بضعفين ولا بثلاثة، بل بأضعاف متكررة، وغير محددة، لا يحصيها إلا الله تبارك وتعالى. وزيادة على تلك الأضعاف التي وردت بدلالة المبالغة، فإنه له كذلك ما هو أعظم ﴿ وَلَهُۥٓ أَجۡرٌ كَرِيمٌ ﴾ وهو الجنة. قال ابن جرير الطبري رحمه الله

تعالى: وله ثواب وجزاء كريم، يعني بذلك الأجر: الجنة[١] ويُستفاد من ذلك أهمية الكرم وسخاء النفس في العطاء، وأن يُحسن من أقرض غيره بجميع أوجه الإحسان. من حيث الستر، ومن حيث الوقت، والصبر، والإحسان، وكل ما يتعلق بأخلاق الإقراض الحسن. لأنه منهج الله تعالى الكريم الرحمن. وهذا يُفيد أهمية أن يتناول الداعية والمربي والناصح الدلالات القرآنية الكريمة، التي تدفع الإنسان للخير وتُبعده عن الشر وتربي فيه خصال الخير ومكارم الأخلاق. والحمد لله رب العالمين.

﴿ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ ﴾

ثم يخبر اللهُ تبارك وتعالى بما أعده للمؤمنين والمؤمنات من عظيم الثواب والعطاء يوم القيامة. بما يُظهر منزلة الإيمان، وما يتبعه من الطاعة، فيقول تبارك وتعالى ﴿ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ يخاطب الله تبارك وتعالى كل أحد بعينه ﴿ يَوْمَ تَرَى ﴾ يوم ترى أيها الْمُخَاطَب بهذا القرآن ﴿ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ وهم الذين صَدَّقُوا واستجابوا لله تعالى، وحققوا الإيمان، وانقادوا به لطاعته عَزَّ وجل ﴿ يَسْعَىٰ نُورُهُم ﴾ يمضي نورهم ﴿ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ أمامهم، فَيُضيء لهم الطريق على الصراط. قال المفسرون: يضيء نور عملهم على الصراط على قدر أعمالهم، منهم من نوره مثل الجبل، وأدناهم نوراً على إبهامه، يطفئ مرة، ويوقد أخرى[٢] مما يستحث الإنسان على الإيمان، وبذل الجهد في الطاعة، ليكون نوره عظيم الإشعاع والإضاءة. وهذا من عدل الله تعالى بين عباده المؤمنين.

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٣٩٧/٢٢)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣٠٢/٧)

فيمضي نورهم ﴿وَبِأَيۡمَٰنِهِم﴾ أي: بصحائفهم. التي هي كتبهم إذ يُعْطَونها بأيمانهم، قاله الضحاك رحمه الله تعالى. وقيل: نورهم يسعى، أي: يمضي بين أيديهم، وعن أيمانهم، وعن شمائلهم[1] فشملت الدلالة الأمرين معاً، فيحملون كتبهم بأيمانهم، ويُضيء نور أيمانهم أمامهم، يميناً وشمالاً، وكل بقدر طاعته لربه سبحانه وتعالى. وتقول لهم الملائكة مرحبة ومهنئة لهم ﴿بُشۡرَىٰكُمُ ٱلۡيَوۡمَ﴾ يا لكم من البشارة العظيمة التي تجدونها اليوم ﴿جَنَّٰتٞ﴾ حدائق من البساتين العظيمة ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ تتدفق فيها الأنهار من كل جهة. فليس فيها نهر واحد، بل ورد بصيغة الجمع، ليفيد الكثرة والتعدد. كما أفادت دلالة ﴿تَجۡرِي﴾ قوة وسرعة تدفق الما من كثرته وقوته، ليظهر جماله بهيئة التدفق والجريان من أسافل الجنة، وتحت القصور.

كما تبشرهم الملائكة بالخلود فيها ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي: لا تخرجون منها أبداً، ولا تموتون أبداً، فهي حياة دائمة لا نهاية لها. ثم تُعَظِّم هذا الفوز وهذا النعيم باسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ ذلك الذي أنتم ذاهبون إليه ﴿هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ هو الفوز الحقيقي لا غيره، فهو فوز عظيم، بما فيه من النعيم المقيم. وفي هذا البيان من الله تعالى لحال دخول المؤمنين والمؤمنات الجنة ما يحفزهم به من الحقائق القادمة للطاعة والامتثال لربهم. ويستثير غيرهم إليه، ويرغبهم في لزوم طاعته تبارك وتعالى، وهذا من رحمة الله عزَّ وجل، وأنه ما أرسل الرسل وأنز الكتب إلا لينعم العباد، وأن من حاد عن الطريق فعذابه بما كسبت يداه.

وفي ذلك اليوم يكون حال المنافقين في ظلام، لا يرون لهم طريق، وحينئذ يطلبون من المؤمنين نوراً لهم، من أجل العبور على الصراط، كما قال تعالى ﴿يَوۡمَ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ قِيلَ ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ فَٱلۡتَمِسُواْ نُورٗا فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ﴾ ففي ذلك اليوم يكون شأن أهل النفاق الذين أظهروا الإيمان كذباً وزوراً، وأبطنوا الكفر، فإنهم يترجون من المؤمنين نوراً لهم ﴿يَوۡمَ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: أن وصفهم في الدنيا هو النفاق، بأنهم أولئك الذين أظهروا الإيمان كذباً وزوراً، وأبطنوا الكفر. فيقولون للمؤمنين ﴿ٱنظُرُونَا﴾ أمهلونا وأعطونا ﴿نَقۡتَبِسۡ﴾ نحصل وننال ﴿مِن نُّورِكُمۡ﴾ ما نمشي به معكم، لنعبر الصراط. وننجو من العذاب

(١) المرجع السابق (٣٠٣/٧)

﴿ قِيلَ ٱرْجِعُواْ وَرَآءَكُمْ ﴾ فيقال لهم ﴿ ٱرْجِعُواْ وَرَآءَكُمْ ﴾ عودوا وراءكم، أي: ليس هذا لكم ﴿ فَٱلْتَمِسُواْ نُورًا ﴾ فاطلبوا إن أمكنكم ذلك النور. وهو من باب التعجيز، والتهكم بحالهم. والحال أنه لا يمكنهم ذلك أبداً.

وهنا يحصل من الله تعالى المفاجأة لهم ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ ﴾ ففجأة فإذا بحاجز قائم، يفصل بينهم وبين المؤمنين والمؤمنات. قال قتادة رحمه الله تعالى: حائط بين الجنة والنار(١) وهذا السور ﴿ لَّهُۥ بَابُۢ ﴾ ولهذا الباب ميزة عظيمة ﴿ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ ﴾ أي: من جهة المؤمنين فيه الرحمة، بما يؤدي إليه من الجنات ﴿ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴾ ومن الجهة الأخرى المقابلة التي تشكل ظهر الباب نار جهنم، التي هي العذاب للمنافقين والكافرين عموماً. وسُمّي ﴿ بَاطِنُهُۥ ﴾ و ﴿ وَظَٰهِرُهُۥ ﴾ لأن جهة الباب الرئيسة هي باطن الباب المقابلة لظهره التي هي جهة النار. مما يبين عظيم هذا السور، وعظمة عرضه، وارتفاعه، وقوته، وقوة بابه.

والسور هو الأعراف. كما ورد في سورة الأعراف ﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌۚ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْۚ وَنَادَوْاْ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ وذكر ابن جرير رحمه الله تعالى: أن الحجاب، هو السور، وهو الأعراف، وسُمّي الأعراف أعرافاً لأن أصحابه يَعْرِفون الناس(٢) ولا أحد يعرف عرض هذا السور إلا الله تعالى، فملكوت الله تعالى أعظم من أن يتصوره الإنسان، أو أن يحيط به علماً.

ثم يخبر الله تعالى عن حال المنافقين ذلك الوقت، فيقول عَزَّ وجل ﴿ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ وفي هذا الموقف المهيب ﴿ يُنَادُونَهُمْ ﴾ ينادي المنافقون المؤمنين ﴿ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ﴾ ألم نكن على دينكم؟ فيرد عليهم المؤمنون ﴿ قَالُواْ بَلَىٰ ﴾ صحيح، أي: كان ذلك بظاهركم ﴿ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ ولكن الأمر غير ما تدعون، فقد ﴿ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ بالنفاق، فتظهرون الإسلام، وتبطنون الكفر في قلوبكم. ﴿ وَتَرَبَّصْتُمْ ﴾ وتتربصون وتنتظرون بالحق وأهله أن يهزمهم الأعداء. وكذلك من صفاتكم أنكم ﴿ وَٱرْتَبْتُمْ ﴾

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٢/٤٠٢)

(٢) المرجع السابق (١٠/٢٠٨-٢٠٩)

أي: وشككتم، فكنتم في شك، ولم يستقر الإيمان في قلوبكم ﴿ وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡأَمَانِيُّ ﴾ وخدعتكم أمانيكم التي كنتم تتربصون بها الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، من أن ينهزموا، ويذهب أمرهم، وينتهي دين ربهم سبحانه وتعالى. فأخذتكم هذه الأماني بغرورها ﴿ حَتَّىٰ جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ ﴾ حتى أتى موتكم، ووقعت الواقعة، ودخلتم النار ﴿ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴾ وخدعكم غروركم بآيات وحجج الله تعالى، وبما وعد وأنذر به. مما يفيد كان الأولى بكم الإيمان الصادق، وأما الآن فليس إلا الجزاء. مما يفيد كذلك التحذير من النفاق، وعاقبته الوخيمة. ومن رحمة الله تعالى أنه كشف للعباد الحقائق قبل أن تكون. ليكون ذلك إنذاراً لكل مُكَلَّف.

وأما اليوم فقد انتهى كل شيء، وبقي الجزاء ﴿ فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُؤۡخَذُ مِنكُمۡ فِدۡيَةٞ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ مَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُۖ هِيَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ فيقول المؤمنين والمؤمنات للمنافقين ﴿ فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُؤۡخَذُ مِنكُمۡ فِدۡيَةٞ ﴾ لا يؤخذ منكم عوضاً لرفع العقاب عنكم، فقد فات الأمر، وليس لكم إلا ما أنتم فيه من عذاب النار، ومثلكم جميع الكفار، فكما لا يُؤخذ منكم فدية فكذلك ﴿ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: يقول تعالى ذكره مخبراً عن قيل المؤمنين لأهل النفاق، بعد أن مَيَّز بينهم في القيامة ﴿ فَٱلۡيَوۡمَ ﴾ أيها المنافقون ﴿ لَا يُؤۡخَذُ مِنكُمۡ فِدۡيَةٞ ﴾ يعني عوضاً، وبدلاً. يقول: لا يؤخذ ذلك منكم بدلاً من عقابكم وعذابكم، فيخَلِّصَكم من عذاب الله ﴿ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ ولا تؤخذ الفدية أيضاً من الذين كفروا[١] فإن مصيركم أيها المنافقون، والكافرون النار ﴿ مَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ﴾ ثم يعنفهم سبحانه وتعالى بأن النار اليوم هي أولى بكم، وأنتم مصاحبين لها ﴿ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ فبئس المآل الذي ستؤولون إليه، بذهابكم إلى النار التي أُعدت لكم. فإن مصير المنافقين وعموم الكافرين إلى جهنم وبئس المصير.

وقد وصف الله سبحانه وتعالى هذا المصير الذي سيؤولون إليه بأبشع وأقبح أنواع الوصف ﴿ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ فكلمة ﴿ وَبِئۡسَ ﴾ تفيد البؤس الذي حل بهم من شدة المصير الذي صاروا إليه، وهي تفيد أقصى قوة الذم وأبلغه. إذ تجمع كلمة ﴿ وَبِئۡسَ ﴾ جميع صفات الذم كلها، فهي أبلغ وصف عند إرادة عظيم الذم وأبلغه. وفي هذا بيان ما آل إليه المنافقون والكافرون. ليفيد التحذير لمن هم على قيد الحياة من النفاق والكفر، بما أخبر

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٤٠٧/٢٢)

وأظهر سبحانه وتعالى من حقائق المصير. وهذا من رحمته تبارك وتعالى بالعباد، إذ يحذرهم، ويبين لهم، ويرشدهم.

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾ ﴾

وبعد أن ذكر تبارك وتعالى حال المؤمنين في الآخرة، وما لهم من النعيم. وحال المنافقين ومعهم الكافرين، وما ساروا إليه من سوء المصير. يستثير سبحانه وتعالى المؤمنين لمزيد الخشية بما يُتلى عليهم من القرآن عن تلك الأحوال والمفارقات بين حال المؤمنين والمنافقين. فقال تعالى ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ ألم يأت ويحين الوقت الذي ترق وتلين قلوب المؤمنين لذكر الله تعالى، أي: أنه يجب أن يورثهم ما يسمعون من الذكر من ربهم خشوعاً في قلوبهم. فلماذا لم يحصل ما يجب أن يكون منهم. وفي هذا تنبيه لأن يراجع كل مؤمن نفسه عن علة وسبب ذلك. وبما يفيد العتاب على عدم الخشوع. وأنه يجب أن يُولُوا ذكر الله تعالى عنايتهم واهتمامهم بقوة الاستماع والتدبر والاعتبار الذي يتحقق به الخشوع، فتنقاد النفوس والعقول والقلوب إلى الخشوع من ذكر الله تعالى، تأملاً وتدبراً.

وقد تأثر الصحابة رضي الله عنهم بذلك، وأسقطوها على أنفسهم بالرغم من أنهم أهل الرعيل الأول، المشهود لهم بالفضل. قال الحسن: يستبطئهم وهم أحب خلقه إليه[١] مما يبين قوة خضوعهم وتجاوبهم مع الحق. فقد قال ابن عباس رضي الله عنهما: إن الله استبطأ قلوب المهاجرين، فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة من نزول القرآن[٢] وقال ابن مسعود رضي الله عنه: ما كان بين إسلامنا، وبين أن عوتبنا بهذه الآية إلا أربع سنين،

---

(١) الشوكاني، فتح القدير (١٧٢/٥)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٣٢/٤)

فجعل المؤمنون يعاتب بعضهم بعضاً[١] فمن قوة إيمانهم وحبهم لربهم والامتثال لطاعته، عاتبوا بعضهم بعضا. فجعلوا ذلك عتاباً لهم. وقال الزجاج رحمه الله تعالى: نزلت في طائفة من المؤمنين، حثُّوا على الرقة والخشوع. وقيل أنها نزلت في المنافقين قاله أبو صالح عن ابن عباس[٢] مما يفيد أن الواجب على المؤمن أن يتفاعل مع ذكر الله تعالى، بما يتحقق به الخشوع. وما يلزم لذلك من الاعتبار وقوة الاستماع والتدبر الذي يتحقق به الخشوع، حتى تنقاد العقول والقلوب تأملاً وتدبراً لذكر الله تعالى.

ومن غزارة البيان للآية الكريمة أنها تأتي كتنبيه وتوجيه عام لما يجب أن يكون عليه المؤمن مع ذكر الله تعالى، وتأتي كمعالجة لمن حصل عنده ما يستوجب التنبيه. وتأتي على سبيل التحذير، وتأتي لمعالجة شأن المنافقين الذين يُظهرون الإيمان، ويبطنون الكفر، وكذلك لأهل الكتاب. وهذا من غزارة قوة بناء سياق الآية العظيمة، التي ظهر الإعجاز البياني حتى في استيعاب تنوع أحوال المستهدفين، ليظهر لكل أحد أن هذا القرآن الكريم هو كتاب الله تعالى المعجز في سياقه، وقوة تراكيب كلامه، وأنه من عند الله عَزَّ وجل، وليس من مقدور الخلق أن يأتوا بمثله أبداً.

وقد بدأ البيان الكريم بأداة الاستفهام ﴿أَلَمْ﴾ لإفادة الإنكار، ومع دلالة قوله تعالى ﴿يَأْنِ﴾ إذ أفاد ذلك الاستبطاء لما يجب. بما يفيد أهمية مراجعة النفس حيال الخشوع لذكر الله تعالى حين سماعه. فيُعَلِّم ويوجه المؤمن بأن لا يكون قلبه عند سماع مواعظ القرآن لا هياً، ومنصرفاً، بل أن يتدبر ويتفكر، بما يجعله يصل إلى الخشوع. والخشوع هو: لين القلب ورقته مع انكساره، بما ينعكس على بدن الخاشع بمشاعر التذلل والاستكانة، والخنوع لرب العالمين. وتشمل دلالة ﴿لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ كل ما يذكر بالله تعالى، من القرآن العظيم، ومن أحاديث المصطفى صلى الله ليه وسلم، ومن البراهين والحجج المبثوثة في الكون، ومن العبر والحوادث التي تظهر فيها آيات الله تعالى، وكمال تدبيره.

ومن دقائق البيان هو ربط الخشوع بالقلب ﴿أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ﴾ فموطن الخشوع هو القلب، الذي يعقل به الإنسان، ويتدبر ما يسمع، وما يرى من المواعظ. مما يبين أن القلب هو القوة المؤثرة في قيادة الإرادة، والتصرف. وأنه القوة التي تتحرك بها إرادة الإنسان سرعة وبطأ. كما يبين ذلك أهمية العناية بالقلب، وسؤال الله تعالى الخشوع لذكره.

(١) مسلم، صحيح مسلم، برقم (٣٠٢٧) وذكره ابن كثير، وابن الجوزي، وغيرهما.

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣٠٢/٧)

كما تبين الآية الكريمة أن في ذكر الله عَزَّ وجل قوة مؤثرة على القلوب ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ فإن ذكر الله تعالى قوة واعظة للقلب، والذي يؤثر بدوره على إرادة الإنسان، مما يستوجب حُسن الاستماع إلى ذكره تبارك وتعالى. ثم عطف على عموم الذكر عَزَّ وجل ﴿وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ وهو القرآن العظيم. فخص القرآن تعظيماً وبياناً من بين عموم الذكر، بما يُظهر أن تأثيره على القلوب عظيم. ففي إفراده تخصيص، وإظهار له من الله سبحانه وتعالى، مما يبين عظيم قدره ومنزلته، فإنه القرآن الكريم العظيم.

ثم أورد سبحانه وتعالى ما يُحذر به من الأدلة العملية الواعظة. فأخبر عن حال أهل الكتاب. فقال تعال ﴿وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ﴾ أي: لا تكونوا كاليهود والنصارى من قبلكم. قال الشوكاني رحمه الله تعالى: والمعنى: النهي لهم عن أن يسلكوا سبيل اليهود والنصارى، الذين أُوتوا التوراة والإنجيل من قبل نزول القرآن(١) ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ﴾ أي: طال عليهم الزمان والغاية. فقد بَعُدَ عهدهم بالأنبياء ﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فاشتدت قلوبهم، حتى أنهم لم يؤمنوا بالرسول محمد صلى الله عليه وسلم، مع علمهم به، كما هو في كتبهم. فلولا قسوة قلوبهم من الحسد والاستكبار لآمنوا وصدقوا. ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ فأكثرهم خارجون عن الحق، لأن الفسوق هو الخروج عن الأصل. وذكر القرطبي رحمه الله تعالى: قول ابن مسعود رضي الله عنه: إن بني إسرائيل، لما طال عليهم الأمد، قست قلوبهم، فاخترعوا كتاباً من عند أنفسهم. استحلته أنفسهم. وذكر أن طائفة منهم رجعوا عن دين عيسى، وهم الذين فَسَّقَهُم اللهُ تعالى(٢) مما يبين أهمية أخذ العبرة من أحوال الغير، والاعتبار بها. كما أن في قوله سبحانه وتعالى ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ أنه لم يقل عَزَّ وجل جميعهم، بل قال تعالى ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ﴾ مما يعلم المؤمن العدل والإنصاف في الوصف، وعدم المجازفة. فإذا كان الله تعالى يقول عن عبيده بهذا العدل في الوصف. فكيف بالعباد فيما بينهم، خاصة وأن جميعهم عبيد لله تعالى.

ثم يلفت سبحانه وتعالى العقول إلى دلائل البعث والنشور، بما بينه عَزَّ وجل من حياة الأرض بعد موتها. فقال تبارك وتعالى ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾

(١) الشوكاني، فتح القدير (١٧٢/٥)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٦٢/١٧)

يشد سبحانه وتعالى الانتباه إلى البيان العظيم بفعل الأمر ﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ ﴾ بما يفيد التعظيم لِمَا سيلقيه الله سبحانه وتعالى على الْمُخَاطَبين. وهو ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا ﴾ فخصص سبحانه وتعالى الأرض بالإحياء بعد موتها ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا ﴾ فيحي الأرض الجافة الميتة، وذلك بإنبات الزروع والأشجار بعد موتها وجفافها. حيث تنشأ وتدب الحياة في الأرض بظهور الأعشاب والزروع المختلفة، فتصبح مخضرة بالحياة والانتعاش؛ بعد أن كانت جافة ميتة لا حياة فيها. فإنها آية في البعث والنشور بعد موت الإنسان، فهي حالة مماثلة لما سيكون من حال عودة الحياة للإنسان بعد وفاته وهلاكه، فالذي بقدرته يُحي الأرض بعد موتها، فإنه بقدرته يحي الإنسان بعد موته. فاعلم وتعلم وتأمل أيها الْمُخَاطَب في كيفية إحياء الأرض بعد موتها، كيف ينزل الغيث، ثم تُنبت الأرض، من غير بذور تبذر، ولا حرث يُحرث، ومن غير ماء تُسقى إلا بما نزل من المطر، ومن غير تدخل للإنسان في ذلك، إلا ما كان خاصاً بالإنسان مما يقوم به من الحرث والزرع.

فهو تعليم بقياس الغيب من البعث بعد الموت على المشاهد والمحسوس من إحياء الأرض الجرداء بعد موتها بالجفاف. وهو أسلوب غاية في قوة دلالته. فيقررهم الله تعالى بهذا البيان المنظور والمشاهد من الإحياء بعد الإماتة إلى تقرير إعادة بعث الإنسان بعد موته، كما أعاد إحياء الأرض بعد موتها. فالذي خلق وأنبت الزرع بهذه القدرة، لا يعجزه إعادة الخلق بالبعث لهم من القبور. أفمن هذه قدرته العظيمة، أيعجز عن إعادة الخلق بعد الموت؟ فإن الإجابة: لا يعجزه شيء سبحانه وتعالى. لأنه عَزَّ وجل على كل شيء قدير. فالواجب إذاً الإيمان بالبعث، وباليوم الآخر، والطاعة والامتثال لله تعالى، ولرسوله صلى الله عليه وسلم.

ثم تأتي إقامة الحجة مباشرة ﴿ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ ﴾ قد أظهرنا وأقمنا الحجج والبراهين لكم ﴿ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾ فاعقلوا ذلك بالفهم والتطبيق، ولا تتهاونوا فيه. فبهذا يحثكم ربكم تبارك وتعالى على أن تعقلوا ما بينه لكم، فتؤمنوا وتصدقوا بالبعث بعد الموت. وجملة ﴿ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾ بيان يتحقق لكم به الخير فاعقلوا ذلك بالفهم والتطبيق، ولا تتهاونوا فيه. فإن المطلوب والمتوقع منكم تجاه هذا البيان العظيم، أن تدركوا هذا الفضل فيحصل منكم التصديق والإيمان. ودلالة ﴿ لَعَلَّكُمۡ ﴾ تفيد التعليل، فهذا الإنعام بالبيان التشريعي يعلل لكم وجوب تَعَقُّلَهُ، فإن تعقلتم ما بيناه لكم آمنتم بالبعث بعد الموت. فهو أسلوب بديع من الله تعالى في تربية الإنسان، وتوجيهه بهذا الحث والترغيب إلى فهم ما يجب عليه من التصديق، من خلال أسلوب استثارة عقله ومشاعره نحو الفهم بالقياس، ونحو القيام بما يجب عليه.

ثم يخبر تبارك وتعالى بعظيم الأجر لمن يتصدق، ويقرض القرض الحسن إخلاصاً لله تعالى. فقال عَزَّ وجل ﴿ إِنَّ ٱلۡمُصَّدِّقِينَ وَٱلۡمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقۡرَضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا يُضَٰعَفُ لَهُمۡ وَلَهُمۡ أَجۡرٞ كَرِيمٞ ﴾

إن الذين يتصدقون من المؤمنين والمؤمنات، وبالغوا في ذلك، وأنفقوا من أموالهم في أوجه الخير لهم ثواب عظيم. ويتجلى من دلالة السياق قوة التحريض على المبادرة في تقديم النفع من الخير للغير، فقد ورد البيان بحرف ﴿ إِنَّ ﴾ المؤكدة لما بعدها، كما ورد ﴿ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ ﴾ بالتعيين للمؤمنين والمؤمنات، فأفراد الرجال، وأفرد النساء بالذكر، لتعظيم شأن المتصدقين والمتصدقات. ثم عطف عليهم الإقراض ﴿ وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ ﴾ بالصدقة والنفقة فيما ندب وحث عليه عَزَّ وجل. واشترط له أن يكون ﴿ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ وهو الذي لا مِنَّة فيه ولا يتبعه أذى، مع الإخلاص لله تعالى في ذلك.

ومن دقائق البيان أن أضاف الله سبحانه وتعالى الإقراض من المقرض له جَلَّ جلاله ﴿ وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ ﴾ فهذا من باب تعظيم الإقراض، وأنه إخلاصاً لله تعالى، وليس للرياء والسمعة. وبما يفيد ضمان الأجر لهم، فالإقراض تَعَبُّداً لله تعالى به. مما يبين كذلك أهمية النفقة على جميع الأوجه المشروعة، وسماه قرضاً لأن القرض هو الذي يُعاد من الْمُقْرَض إليه إلى الْمُقْرِض. فإن الله تعالى من تعظيمه للعطاء والإنفاق في أوجه الخير، جعل ذلك كمن أقرضه لربه سبحانه وتعالى، وهو الغني المغني، لإفادة الجزاء والمكافأة على القرض. وأن المكافئ هو الله تعالى بأضعاف الأجور والثواب الذي لا يعلمه إلا الله عَزَّ في علاه.

ثم يبين سبحانه وتعالى ثوابه من وجهين: الأول: مضاعفة ما أعطوا من الصدقة والقرض ﴿ يُضَٰعَفُ لَهُمْ ﴾ يضاعف الله تعالى لهم ما قدموه إلى أضعاف من غير تحديد لها، إلى عشرة، وإلى سبعمائة ضعف، إلى ما لا يعلمه إلا الله تبارك وتعالى. إذ لم يحدد سبحانه وتعالى مقدار المضاعفة. لبيان عظيم كرم الله تعالى على من أنفق بالصدقة والإقراض.

والوجه الثاني للثواب هو: عظيم الأجر. فبالإضافة إلى المضاعفة قال تعالى ﴿ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ فلهم من الله تعالى المثوبة المتصفة بالكرم. والكرم معناه الزياد في الأجر، وإذا كان من الله تعالى العظيم الكريم، فيكون ثواباً كريماً لا حدود له. مما يبين عناية الإسلام بالتراحم، والتعاون، ومد يد المساعدة للغير، بحسب ما يحتاجون من بعضهم البعض. وفي هذا ترغيب للمؤمنين في الصدقات والإنفاق في سبيل الله تعالى، بالأوجه التي تُرضي الله تعالى، وهو أن يكون وفق شريعة الله تعالى، مع الإخلاص له عَزَّ وجل، وليس للرياء، ولا للسمعة، بل خالصاً لله تعالى، ومن غير أن يتبعه شيء من المن والأذى.

ثم يبين تبارك وتعالى فضل الإيمان والمؤمنين، فيقول عَزَّ وجل ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ

أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ فالذين صَدَّقُوا بالله تعالى، وبربوبيته وألوهيته، وبأسمائه وصفاته. وآمنوا بجميع المرسلين، وخاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم. وعملوا بشرائع الدين ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ﴾ أي: هم المتصفون بصفة الصدق، وبالغوا في صدقهم، لأن دلالة ﴿ ٱلصِّدِّيقُونَ ﴾ تفيد المبالغة في الصدق، وتحريهم له، فلا يقولون إلا الصدق، في أقوالهم وأعمالهم، وقبل ذلك صدق قلوبهم. فهؤلاء هم الذين منزلتهم بعد الأنبياء، أي: دون الأنبياء. كما جاء في سورة النساء ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ فمن عمل بما أمره الله تعالى به ورسوله صلى الله عليه وسلم، وترك ما نهى عنه اللهُ سبحانه وتعالى ورَسُولُه صلى الله عليه وسلم، فإن الله تعالى يُسكنه دار كرامته، ويجعله مرافقاً للأنبياء، ثم لمن بعدهم في الرتبة، وهم الصديقون، ثم الشهداء، ثم عموم المؤمنين، وهم الصالحون.

ثم امتدح الله تعالى الشهداء، وأفردهم بالذكر والتخصيص، فقال تعالى ﴿ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾ وهم الذين قُتِلُوا في سبيل الله تعالى، وفق مراد الله تعالى ومنهجه القويم، إذ ليس الشهيد هو من قاتل وفق ما يراه، ويحلوا له، بل لا يكون شهيداً إلا إذا كان وفق منهج الله تعالى. فهؤلاء الشهداء ﴿ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ تعظيم لمنزلتهم، والحفاوة بهم ﴿ لَهُمْ أَجْرُهُمْ ﴾ لهم ثوابهم العظيم الخاص بهم، لأنهم قدموا أرواحهم في سبيل الله تعالى. وكذلك من مميزاتهم أن لهم نورهم الخاص بهم ﴿ وَنُورُهُمْ ﴾ أي: نورهم الخاص بهم. فميزهم الله تعالى بما تميزوا به من الفداء بأنفسهم في سبيله عَزَّ وجل.

ثم ذكر تبارك وتعالى عذاب الذين كفروا، فقال جَلَّ شأنه ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ فأما الذين كفروا، ولم يؤمنوا فجحدوا بآيات الله تعالى، من الحجج والبراهين ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ فإنهم مصاحبون للنار، التي لا تنفك عنهم، ولا ينفكون عنها، فمصاحبتهم لها مصاحبة ملازمة، وملاصقة، فلا يخرجون منها. وقد سمى الله تبارك وتعالى تلك النار باسم ﴿ ٱلْجَحِيمِ ﴾ لأنها تتأجج وتحتدم من قوتها، فلهم بذلك من الله تعالى أشد العذاب، بالملاصقة والمصاحبة لجهنم وبئس المصير. فنسأل الله تعالى العافية، والنجاة، ودخول الجنة بسلام.

﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢١﴾ ﴾

ثم ينتقل البيان من الله تعالى إلى تفسير حقيقة الدنيا، والتنبيه لحقيقة أمرها وشأنها، حتى لا يغتر بها الإنسان، إذ جعل الله تعالى فيها بعض الخصائص لتدفع الإنسان المؤمن نحو اغتنامها، وألا يُفتتن بزخارفها. فقال الله تعالى مبيناً ومحذراً ﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ﴾ اعلموا أيها العباد بحقيقة الدنيا التي تعيشون فيها. فإنها لعب ولهوى، وبالتالي فإن عليكم الحذر من لهوها واشغالها لكم بزخارفها عن الأمر الذي خلقكم الله تعالى من أجله، وهو عبادته وحده لا شريك له وفق ما شرع.

وبدأ البيان بفعل الأمر ﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ ﴾ بما يتحقق به شد الانتباه إلى البيان العظيم الذي يجب أن تُولوه انتباهكم وعنايتكم، وبما يفيد التعظيم لِمَا سَيُلْقِيهُ ربكم سبحانه وتعالى إليكم من البيان العظيم، ثم تلاه أداة الحصر ﴿ أَنَّمَا ﴾ التي حصر بها السياق أن في الحياة الدنيا مؤثرات قوية، فانتبهوا لها. فقال تعالى ﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا ﴾ اعلموا أيها الناس أن في الحياة الدنيا مؤثرات قوية وعظيمة، فاحذروا منها: الأول: اللعب: ﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ ﴾ وهو الاشتغال والعبث بممارسة ما لا فائدة فيه، ووصفت الدنيا بهذا الحال تزهيداً فيها، لأنها فانية، مهما كان اللعب جاذباً ومغرياً، فإنه لا يحقق لصاحبه مصلحة دائمة ثابتة، تستقر عينه وفؤاده بها. وتحقق وتؤدي به إلى الخير والنفع. والثاني الذي يجب الحذر منه: هو اللهو ﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ ﴾ واللهو هو: كل ما يشغل الإنسان عما يعنيه ويهمه. وهو الحالة التي يشتغل فيها الإنسان بما لا يعود عليه بالنفع، فهو الاستمتاع بملذات الدنيا. فما شأن الحياة الدنيا وما فيها من الزينة ومن الاشتغال بها إلا بمثابة من يلتهي ومن يلعب.

والأمر الثالث الذي يجب الانتباه له، هو زينتها: ﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ ﴾ وهو ما يتزين به الناس في ذواتهم، أو في ممتلكاتهم، كالملبس أو المسكن، أو ما يركبه، ويسير به. والشأن الرابع الذي اتصفت به الحياة الدنيا هو: ﴿ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ ﴾ أي: التنافس فيما بين أهلها بالمال والممتلكات، والأحساب والأنساب، والمناصب، على سبيل التكاثر، من أجل المفاخرة، كلٌ بما عنده من زيادة على غيره. ثم خص الأموال والأولاد من بين ما يتكاثر الناس فيه. فقال تعالى ﴿ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ ﴾ وذلك لقوة تأثيرهما في المفاخرة، وفي تقديم الأموال على الأولاد ما يدل على قوة تأثير الأموال، بأنها الأشد طلباً في المكاثرة. وهي شاملة لجميع أنواعها، من الممتلكات كالنقود، والمنازل، وغيرها مما لا حصر له، وذلك لكثرتها وتنوعها. ثم عطف سبحانه وتعالى عليها الأولاد. حيث يفاخر الرجل بكثرة أولاده، فيجعل الهدف من التكاثر في الإنجاب هو من أجل المفاخرة. وجميع هذه الأمور تُشغل الإنسان عما خُلق من أجله في هذه الحياة الدنيا، وهي عبادة الله تعالى. مما يجب الانتباه والحذر من ذلك، وأن يُطَوّع الإنسان ما يملكه ليكون في طاعة الله تعالى. وأن يبتعد عن المكاثرة من أجل المفاخرة.

ومن دقائق البيان أن ورد التفاخر والتكاثر بصيغة التفاعل ﴿ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ ﴾ لإفادة المبالغة في إظهار التفاخر والتباهي بكثرة الأموال، والأولاد، والزينة، وما يتلهون ويلعبون به، فهو تكاثر من أجل المفاخرة فيما بينهم. فالهدف محصور في أن يرى بعضهم ما عند الآخر. فشأن ذلك الطلب مصروف عن الحقيقة الأصلية والهدف الأساسي إلى ما يتحقق به إثارة التنافس والتحاسد والتباغض بينهم. بينما منهج الإسلام قائم على التواضع والتراحم، المنافي لهذه المواصفات السيئة من الباطل. وفي هذا تحليل عميق ودقيق لشأن الدنيا وحال الإنسان معها، ما لم يلتزم بحقائق الدين وأخلاقه وضوابطه وأحكامه ومفاهيمه للحياة الدنيا ومقصدها الحقيقي. فدين الإسلام هو الذي يربي ويعلم المؤمن كيف يكون فيها بتعاليمه العظيمة.

ثم انتقل بهم البيان العظيم الجليل إلى ضرب المثل الذي يوضح لهم ذلك التكاثر وحقيقته، وما كان فيه من أجل التفاخر والتباهي، وما يكون من ميدان اللعب واللهو، بأنه ﴿ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ﴾ فإن حال هذه الدنيا بما فيها من اللهو واللعب والتكاثر والتفاخر بمثابة المطر الذي هال على الدنيا، فأعجب الزراع لِمَا يحصل بسببه من الإنبات الكثير الوفير. وسُمّي الزُّرَّاع بالكفار لِمَا يكون من تغطية الزرع من الزارع عند إلقائه البذور. قال القرطبي رحمه الله تعالى: الكفَّار هنا: الزرَّاع، لأنهم يغطون البذر[1] وقال ابن الجوزي رحمه

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٧/١٦٥)

الله تعالى: عن قوله عَزَّ وجل ﴿ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ ﴾ أنهم الزُّرَّاع. وسُمُوا كفاراً لأن الزارع إذا ألقى البذور في الأرض، كفره. أي: غطاه[1] بالتراب، ليحصل الإنبات بإذن الله تعالى.

ثم بعد ذلك الإعجاب بذلك الزرع الذي نبت واخضر، فأعجب الزراع نباته، فإذا به ينتقل للحالة التي لا يريدها الزراع، وهي: ﴿ ثُمَّ يَهِيجُ ﴾ فيضطرب يابساً ﴿ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ﴾ فيصبح مصفراً بعد اخضراره مما أصابه من الجفاف ﴿ ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ﴾ فيتكسر بعد يبسه. فهكذا هي الحياة، إعجاب ولهو وزينة، وتفاخر وتكاثر بالأموال والأولاد، فتهيج برونقها وبهجتها كالزرع الذي أعجب المزارعين، ثم بعد الإعجاب بالدنيا يحصل العجز، وكبر السن، ثم الموت والزوال. بما يعني: أنه بذل جهده فيما لا عائد له منه على آخرته. فانتبهوا أيها الناس من بريق الدنيا وزينتها، فهي زائلة، واعملوا لآخرتكم الباقية، فخذوا منها للحياة الأبدية السرمدية، وسخروا كل ما تستطيعون لما ينفعكم في الآخرة، فهي الحياة الباقية.

وهو تشبيه يُظهر سرعة انقضاء الدنيا، وقلة بقاء رونقها، وسرعة زوال الإنسان عما فيها من اللعب واللهو، وحب التكاثر والتفاخر. ليفيد زجر العباد وتنبيههم لحقيقة الدنيا وسرعة زوالها، وأن لا يركنوا إلى لهوها وزينتها فينشغلوا عن الغاية من خلقهم، وهي عبادة ربهم وفق ما شرع. فإن زينة الدنيا ولهوها وتفاخرها من المحقرات التي يجب أن يتنبه لها العاقل، بينما الآخرة سعادة أبدية لا تنقطع، ولا تنتهي. كما أفاد البيان الكريم قوة المشابهة الدقيقة التي أظهرت حقيقة الدنيا للإنسان بهذا البيان العظيم. مما يبين التنوع الإرشادي والبياني في القرآن العظيم. وأن التشبيه من الوسائل التربوية والتعليمية والدعوية التي تمثل وتظهر وتبين الحقائق بالمشابهة.

ثم بعد الوعظ بحال الدنيا وحركتها، وانتهاء العباد منها، يخبر سبحانه وتعالى بما في الآخرة من العذاب لمن استأثر بالدنيا على الآخرة. وبالرضوان لمن لم ينشغل عن الآخرة بحطام الدنيا ولهوها وزينتها، وتفاخرها وتكاثرها. فقال تعالى ﴿ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ﴾ فيوضح الله تعالى الحال في الآخرة عن طريق المقابلة، فيقابل الله تعالى بين حال من شغلته الدنيا عن الآخرة وبين من اشتغل بالدنيا للآخرة. وهي مقابلة تُظهر الفرق وقوة التباين بما يحشد الهمم إلى السير الصحيح في الدنيا، واغتنامها للآخرة.

فهناك في الآخرة أمران: الأول: ﴿ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ فهناك في الآخرة العذاب الشديد لمن كفر، فاشتغل بالدنيا عن الآخرة، وآثر الحياة الدنيا على الآخرة. واشتغل باللهو واللعب والزينة والتكاثر والتفاخر، فألهته عن يوم المعاد، فله العذاب الشدين، من السلاسل والأغلال، فإنهم في النار يسجرون. والأمر الثاني: ﴿ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ﴾ ففي الآخرة مغفرة من الله تعالى للمؤمنين على ما كان من سيئاتهم، وزيادة

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣٠٧/٧)

على ذلك ﴿ وَرِضْوَانٌ ﴾ فيرضى الله عنهم ويرضيهم. فيكون ذلك لمن أطاعه، ولم يغتر بزينة الحياة الدنيا ولهوها وزخرفها، وتفاخر الناس فيها، بل كانوا يستثمرونها لآخرتهم. فيكون لهؤلاء الجنة.

ثم يخبر ويبين تبارك وتعالى حال الدنيا ومتاعها بما يستجيش به القلوب نحو إيثار الآخرة على الدنيا ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُـرُورِ ﴾ فالحياة الدنيا متاع قد اتصف بالخداع والتغرير، بما يفيد الحذر من ذلك، لأنها دار ابتلاء واختبار، ليظهر المطيع من المغرور بها. وفي هذا النص الكريم من المواعظ ما تنحني عنده الرقاب، وتخشع له القلوب، وتتكسر عنده مطالب الدنيا ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُـرُورِ ﴾ فوصف الله سبحانه وتعالى الدنيا بالمتاع الذي هو: كل ما ينتفع به على وجه من الأوجه[١] ولكن صفة هذا المتاع أنه خِدَاع وغُرور، والغرور هو كل ما يخدع ويغرر ويتلاعب بالإنسان من مال أو وجاه، أو غير ذلك من المغريات. فالغرور إذاً هو الخطر على فكر وعقل الإنسان. فإن ملذات الدنيا وشهواتها وزينتها وزخارفها غرور وخداع مُضْمَحِل، مما يفيد الحذر من مواصفات غرور الدنيا التي تتجاذب الإنسان نحو ما يهوي به في الهاوية. قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: العيش فيها يُغري الإنسان بما يُمَنّيه من طول البقاء، الذي سينقطع عن قريب. قال سعيد بن جبير: هي متاع الغرور لمن لم يشتغل بطلب الآخرة، فأما من يشتغل بطلب الآخرة، فهي له متاع بلاغ إلى ما هو خير منها.[٢] وهذا يتطلب من المؤمن الحذر من غرر الدنيا بشهواتها وزينتها، وما يحمله ويزينه شياطين الإنس والجان. وهذا يتطلب الاعتصام بالله تعالى، وسؤال الله تعالى النجاة من فتنة الدنيا وغرورها. وأن يبذل الإنسان وقته وجهده للحياة الآخرة الباقية، التي لا ينقطع نعيمها ولا يزول أبداً.

وهذه قاعدة للمؤمن، إذ يتبلغ بها خير الدنيا والآخرة، فيتجافى بها عن غرور الدنيا الفاتن. فإن ظهرت له شهواتها، قال لنفسه ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُـرُورِ ﴾ وإن غره الجاه والمنصب، تَغَلَّب على نفسه بقوله تعالى ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُـرُورِ ﴾ وإن أخذه شيء عن ذكر وطاعة الله تعالى، عالج نفسه بقول الحق تبارك وتعالى ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُـرُورِ ﴾ وكُلَّمَا واجه ما يُبعده عن الله تعالى والدار الآخرة، انتصر عليه بالتمسك بقوله تعالى ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُـرُورِ ﴾ فهي قوة يتقوى بها المؤمن على شهوات الدنيا وغرورها. وإن رأى لاهياً بها عن طاعة الله تعالى وعظه بقوله تعالى

(١) الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ص (٤٦١)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢/٦٦-٦٧)

﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ﴾ اللهم احفظنا بحفظك، واكلأنا برعايتك، ولا تجعل لغرور الدنيا سلطاناً علينا وعلى إخواننا المسلمين. وسلمنا سالمين إلى جناتك جنات النعيم.

ثم يتدرج التوجيه والبيان الكريم إلى إيضاح ما يجب أن يقوم به العباد في هذه الحياة الدنيا، من الاستثمار فيها للآخرة. فقال تعالى ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ سارعوا أيها الناس وسابقوا إلى درجة المتسابقين للحصول على أسباب مغفرة ربكم لكم، وجنة عظيمة، عرضها كعرض السماء والأرض، قد أعدها الله تعالى للذين آمنوا بالله تعالى وجميع رسله، وخاتمتهم محمد صلى الله عليه وسلم.

ومن دقائق البيان الكريم في أسلوبه وغايته أن ورد الحث على تحصيل المغفرة والجنة بسرعة المتسابقين ﴿سَابِقُوٓاْ﴾ لإفادة إلهاب الحماس، وحض النفوس إلى الاستجابة والطاعة بأقصى العناية، لأن وجه التشابه في التسابق هو بذل غاية وأقصى الجهد الممكن لتحصيل السبق والفوز بأعلى النتائج. فكيف إذا كان الشأن هو تحصيل مرضاة الله تعالى، والفوز بما عنده من النعيم. ثم أورد وأوضح البيان الكريم الشأن الذي إليه يتسابقون. وعَيَّنَهُ في أمرين: الأول: للحصول على مغفرة الله تعالى: فقال عَزَّ وجل ﴿إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ وهو محو الذنوب وسترها، وإزالتها، وعدم المعاقبة عليها بما يستحق صاحبها. وفي هذا دليل على وجوب الإتيان بما يُوجب تحقيق المغفرة، بكثرة الطاعة، وكثرة الاستغفار. وقد أورد البيان أعظم محفز لها، وهو أن هذه المغفرة هي ﴿مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ فربكم هو الذي يمحو عنكم ذنوبكم. وبما يفيد أن الله تعالى يريد مغفرة ذنوبكم، فأتوا بموجباتها من الطاعة والاستغفار، وكل ما يحصل به محو الذنوب. مما يبين عظيم كرم الله تعالى، وعظيم مراد الله تعالى بالعباد، إذ يعظهم ويرشدهم بكل نوع من الإرشاد لتحصيل المغفرة والفوز بالجنة.

والأمر الثاني: الذي يسارعون من أجله هو: ﴿وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ جنة يشبه عرضها في المساحة كعرض السماء والأرض معاً. فكيف إذاً بطولها؟ بما يفيد تعظيم مساحتها. بل ورد عرضها بأسلوب التشبيه ﴿كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ لتقريب الصورة والهيئة فقط للعباد بما يرون، فهي تشبه من حيث مساحة عرضها كعرض السماء والأرض، وإلا أنها أعظم من ذلك. وهو الشأن الذي لا يمكن للإنسان قياسه، ليفيد عظيم المبالغة في تقريب المساحة لعقل الإنسان.

ثم يحفز العباد، ويحثهم على دواعي وأسباب تحصيلها، فيقول تبارك وتعالى ﴿أُعِدَّتْ﴾ تم إعدادها وتجهيزها بالحدائق والأنهار والقصور والحور العين، وبكل ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ﴿لِلَّذِينَ﴾ تحقق فيهم أمرين: الأول: ﴿ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ والإيمان بالله تعالى، هو الإيمان المتمثل بالصدق والتصديق، والذي يؤكده العبد بتوحيد ربه جَلَّ جلاله، وأنه لا إله غيره عَزَّ وجل، فيصرف العبادة له وحده لا شريك له، وأنه رب كل شيء ومالكه، فيتعامل مع كل شيء وفق هذا الاعتقاد، وما يتطلب ذلك من اتباع شرع رسوله محمد صلى الله عليه وسلم.

والأمر الثاني الذي يتحقق به دخول الجنة هو: الإيمان بالمرسلين جميعاً، وخاتمتهم محمد صلى الله عليه وسلم ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ مما يفيد أن من آمن بالمرسلين ممن هم على الأديان السابقة قبل البعثة النبوية، فإنه لتحقيق هذا الشرط لدخول الجنة، أنه يلزمهم بعد البعثة النبوية الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم، ومتابعته على الدين الذي ختم الله تعالى به الأديان كلها. وبهذا يكون قد نسخ الله تعالى الأديان السابقة، فإن الدين عند الله تعالى هو الإسلام.

ثم يُعَظِّمُ الله تبارك وتعالى فضل المغفرة للذنوب، وفضل دخول الجنة، فيقول عَزَّ وجل ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي ذكرناه من الوعد بالمغفرة والجنة ﴿فَضْلُ ٱللَّهِ﴾ كرم الله ربكم الذي قد تفضل به ﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ وهم الذين شاء الله تعالى أن يكونوا أهل طاعته بالاتباع لدينه. فيؤتيه لمن يشاء من عباده فضلاً وإحساناً. فيوفق من يشاء، ممن جاء بأسباب المغفرة، ودخول الجنة. فأثبت تبارك وتعالى لنفسه المغفرة لمن يشاء، وإدخال الجنة لمن يشاء. وفيه إثبات كمال الملك والحكم بأنه لله عَزَّ وجل، وفق ما يشاء، مما يُوجب على العبد أن يرفع سؤال التوسل والتذلل لله تعالى بأن يغفر له، وأن يوفقه لدخول الجنة بفضله وكرمه ورحمته، وألا يعتمد على عمله فقط.

ثم إن الله تعالى بعلمه السابق يعلم بما سيكون عليه العبد، وبما سَيُقْدِمُ عليه من حُسن الخاتمة أو غيرها. وفي هذا إثبات مشيئة الله تعالى، وأنها فوق كل مشيئة، كما قال تعالى في سورة التكوير ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ فجعل الله تبارك وتعالى بحكمته للإنسان مشيئة من الاختيار، وأوضح لهم طريق الخير وطريق الشر، وهذه المشيئة تحت مشيئة الله تعالى، فلا يعني ذلك أن الإنسان منفرد بها، بل إن الله سبحانه وتعالى هو الذي منحها للإنسان بمشيئته، ويمنعها بمشيئته. فيصحح ويعلم سبحانه وتعالى مفاهيم عباده، حتى يعلموا ما يكون منهم، وما يجب عليهم، وأن ذلك لا يعني أنهم خارجين عن مشيئته عَزَّ في علاه. كما يصحح أفهام من حاد فهمه عن الصواب. وهذا من عظيم

التدبير والحكمة والعدل من الله العزيز الحكيم. وأما في سورة الشمس، فقال تعالى ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ ﴾ فعرفها وأفهمها ما يجعلها تدرك الخطأ من الصواب، والحق من الباطل، حتى تتحمل مسؤولية ما يكون منها. وبالتالي فإنه ﴿ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ﴾ يؤتي المغفرة ودخول الجنة من يشاء، وهم الذين سعوا لطاعة ربهم عَزَّ وجل، ووفقهم تبارك وتعالى لذلك.

ثم يذكر تبارك وتعالى عظيم فضله، بما يحفز العباد للطاعة وابتغاء فضله جَلَّ جلاله. فقال عَزَّ وجل ﴿ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ فإن الله تعالى متصف بالفضل العظيم، وهو العطاء المتصف بالعظمة في نوعه وحجمه، فإن ربكم أيها الناس ذو إحسان، وهذا الإحسان متصف بالعظمة، وأنها صفة من صفات الله تعالى. وإذا كان المتصف بهذه الصفة له ملك السماوات والأرض، فإنه لا يعجزه شيء من العطاء، ولا ينقص ذلك من خزائنه شيء. وأن العطاء منه سيكون مدهش للعباد إذا أعطاهم. اللهم إنَّا نسألك من فضلك العظيم في الدنيا والآخرة يا رب العالمين. وقد وصف الله سبحانه وتعالى فضله بالعظيم ﴿ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ ودلالة العظيم، تفيد الكثير، وتفيد: العز والضخامة والفخامة والمجد. ففضل الله تعالى لا يُحَد ولا يُعَد. اللهم إني اسألك لي وللمسلمين من فضلك العظيم في الدنيا والآخرة يا رب العالمين.

﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾ ﴾

يخبر الله تعالى عباده المؤمنين بما يخفف ويُهون عليهم ما يجدون من مصاعب الدنيا. فيقول عَزَّ وجل ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ ما أصاب أحداً مما يكره من الأضرار إلا وقد سبق تدوينها وكتابتها في اللوح المحفوظ قبل أن تكون ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ ﴾ وهي النكبات والشرور والضرر، من الحوادث الموجعة، والنقص في الأنفس والأموال والأولاد، والأرزاق، وفيما يعز على المصاب من الأشخاص، والأحوال المتعدة التي لا حصر

لها ﴿ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ ﴾ أي: في اللوح المحفوظ، إذ قد سبق علم الله تعالى بها قبل أن تقع بأنها كائنة بالعبد، أو العباد، وفق ما ستكون عليه، فهي مكتوبة في اللوح المحفوظ.

وقد بدأ السياق الكريم في بيانها بقوله عَزَّ وجل ﴿ مَآ أَصَابَ ﴾ فجمعت كل ما يقع من المصائب. وهو ما يقع على الفرد ذاته، أو في أي ناحية من الأرض بمن فيها وعليها. فشمل السياق كل ما يقع مما لا يحمده العبد ﴿ مِن مُّصِيبَةٍ ﴾ من أي نوع من أنواع المصائب، فشملت جميع مفردات المصائب التي تقع. ثم عين الله تبارك وتعالى مواطنها بأسلوب الإجمال الذي يحتوي على كل شيء يقع عليه وفيه. فقال تعالى ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ في أي شيء يقع على هذه البسيطة التي هي الأرض، لتشمل ما يقع على الأرض ذاتها، كالحرائق، والخسف، والجدب، والسيول الجارفة، وأيضاً على من هو على هذه الأرض، في الممتلكات، والمزروعات، ومن الأوبئة والأمراض، وغيرها، فاستوفت كل شيء يقع مما يكرهه الإنسان.

ثم خص سبحانه وتعالى جنس الإنسان باعتباره هو الْمُخَاطب، فقال تعالى ﴿ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ ﴾ أي: في ذواتكم. بما يكون في ذات الإنسان نفسه، من هموم، أو أمراض، أو نكبات من الشرور والأضرار والأحزان، ونحو ذلك من المؤثرات. وفي تخصيص النفس من عموم ما يقع على الأرض لشدتها وأثرها العميق على النفس. وباعتبار أن الإنسان هو المعني بذلك. مما يبين قوة عناية الله تعالى بهذا الإنسان، فينبهه عَزَّ وجل إلى حاله، وإلى منهج معالجة أحواله، فأنت المقصود أيها الإنسان أصلاً بنعمة هذا البيان من الله تعالى. والذي يستوجب الشكر لله تعالى على هذا الإنعام من البيان العظيم، حتى يتعامل معه بحكمة وصبر، وتقبل، وجميل المعالجة.

وقد أبان الله تعالى طريقة المعالجة في سور البقرة، فقال تعالى ﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ فهذه بشارة من الله تعالى للمسلم الذي يقابل ذلك الابتلاء من المصائب بأمرين: الأول: الصبر. والثاني: قول: ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ والصبر هو: حبس النفس عن الجزع من المصاب. وهو سكون القلب بما ورد على النفس. وهذه البشارة غير مُقَدَّرَة، بما يدل على أنها عظيمة المكاسب. وقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، ملجأً وملاذاً لكل من أُصِيب بمصيبة، لأن قول من أصابته مصيبة ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ اشتملت على أمرين: الأول: هو الاعتراف ﴿ إِنَّا لِلَّهِ ﴾ اعتراف بأنه مُلْكٌ لله تعالى، فأقر بالربوبية والألوهية، والتوحيد الخالص، وأنه عبد مملوك لله تعالى، المالك له ولكل شيء، في غير اعتراض على قضائه وقدره سبحانه وتعالى. كما في الحديث (عدل فيَّ قضاؤك) والأمر الثاني: الإقرار بالرجوع إلى

الله تعالى. ﴿ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ فهو إقرار بالرجوع إلى الله تعالى، فيكون إقراراً بالبعث بعد الموت، والجزاء والحساب، وبالجنة والنار. فهو سند عظيم، أرشد الله تعالى عباده المؤمنين لهذه القوة العظيمة، التي يستعينون بها على كل مصيبة.

ثم أخبر تبارك وتعالى أن جميع تلك المصائب التي تقع في الأرض وعلى الأنفس أنها مسجلة ومكتوبة قبل وقوعها في اللوح المحفوظ. فقال عَزَّ وجل ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ﴾ وهو اللوح المحفوظ، حيث كتب الله تعالى فيه كل ما سيحدث قبل أن يحدث ﴿ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ﴾ قبل أن يحدث الحدث من تلك المصائب التي تقع على الأرض وفي الأنفس.

ثم يخبر عَزَّ وجل عن سهولة ذلك، فيقول جَلَّ شأنه ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ إن حدوث هذه المصائب وكتابتها قبل أن تحدث يسيرة وهينة على ربكم سبحانه وتعالى، لعظيم قدرته، مع عظيم سعة علمه بما كان، وما يكون، وما سيكون قبل أن يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون. فإن عِلم وإحاطة علمه عَزَّ وجل وسع كل شيء، وبالتالي فإن مَن خلق هذا الكون قادر على كل شيء يريده، ووفق ما أراد. فلا يحدث في الكون ما لم يشاء الله سبحانه وتعالى، لعظيم سلطانه. وبالتالي فإن البعث والنشور، والحساب والجزاء. كلها يسيرة على ربكم عَزَّ وجل، فدلائل الواقع من الآيات والتدبير شاهدة بأن ما وعد الله تعالى به متحقق، لا ريب ولا شك فيه.

وقد ورد في سورة النساء قوله تعالى ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ فحصول الحسنة بفضل من الله تعالى، لأي أحد من العباد، فهو الذي وفقه لها. فهي دلالة جامعة لجميع دلالات الخير، وحصول السيئة التي هي جامعة لجميع أنواع الضرر والشرور، هي بسبب ذنوب صاحبها، فوقعت بسببها المصائب. مما يُعَلِّم المؤمن أن يبذل جهده في الطاعة، وإن حصل له ما يكره فيحمد الله تعالى على أنه في سابق علم الله تعالى. فيتحلى بمكارم الأخلاق مع المصائب. فيبتعد عن الهلع والجزع، ويتحلى بالصبر، وسؤال الله تعالى العافية. مما يبين أن حال الدنيا مبني على تقلبات أحوالها بالمصائب، وأن الدنيا لا تخلوا من ذلك، بما يقرر عند المؤمن العلم بذلك، ليؤمن، ويتقبل، ويتعامل بالحكمة، والرضا بأقدار الله تعالى، وبما يغرس فيه الطمأنينة، بأنه لم تأت المصيبة عرضاً، بل كانت ستقع قبل أن تقع، وأنها بأسباب الإنسان نفسه. وقد ورد البيان بقوة بلاغية عظيمة، إذ جمع الله تعالى تلك المعاني والدلالات في إيجاز عميق، من غير إطناب في التفاصيل، فاستوعبت الآية الكريمة كل نوع من المصائب، وأحوالها، ومواقعها من الإنسان وما يُحيط به.

ومن كرم الله سبحانه وتعالى على عباده المؤمنين أنه يعلل سبب ما بينه لهم من سابق علمه تبارك وتعالى بما سيكون قبل أن يكون ليرفع ويدفع عنهم الحزن على ما يفوتهم من أمور الدنيا، ولا يبطروا فرحاً بما يأتيهم من الخير، حتى يحصل الاعتدال النفسي والْخُلُقي. فقال تعالى ﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ إن سبب ما أخبرناكم به من سابق علمنا فيما يصيبكم من مصائب الدنيا هو ﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ ﴾ لأجل أن لا يحصل عندكم الجزع والتأسف والحسرة والحزن والاغتمام على ما فاتكم وما فقدتم مما تحبون من أمور الدنيا، لأن ذلك كان مكتوباً في اللوح المحفوظ قبل أن يبرأها الله تعالى بخلقها وحدوثها، وذلك لسابق علمه عَزَّ وجل بما سيكون قبل أن يكون. مما يرفع الأسى والحزن والضيق على ما فات وفقد الإنسان. وهذا من عظيم رحمة الله تعالى بعباده، ومن عظيم قيمة الإسلام، ومنهجه، في الاعتقاد، والتشريع، والمعالجة لأحوال الإنسان. مما ينعكس على طمأنينة المؤمن، ونفسيته، فيهدأ ويصبر ولا يجزع، ويلتجئ إلى الله تعالى بالدعاء والتضرع. مما يعلم المؤمن الرضا بقضاء الله تعالى وقدره، ويحمده على كل شيء. كما أن في فوات بعض المحبوبات خير للمؤمن، لأن حصول ذلك المحبوب أو بقاؤه قد يتبعه ما يتألم منه أكثر من وجوده واستمراره. فإن علم وتقدير ولطف الله تعالى عظيم، فإن الله لطيف بعباده في كل ما يقدره من المقادير.

وكذلك من اهداف وغايات ما أخبرناكم به عن سابق علمنا بما سيحدث قبل حدوثه، وأننا كتبناه في اللوح المحفوظ، حتى لا يصيبكم الأشر. فقال تعالى ﴿وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ وحتى لا يصيبك الفرح المفضي إلى الأشر والبغي والطغيان فيما يأتيكم من الخير، بأن يفسره ويؤوله الإنسان على أنه بسبب حنكته، وتدبيره الشخصي المنفصل عن إرادة الله تعالى وتدبيره وقضائه. فقد نسب الله تعالى جميع ما يحصل عليه عباده إليه وحده لا شريك له. حيث قال عَزَّ وجل ﴿وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ فهو الذي آتاكم ما أنتم فيه من خير ونعمة، وليس بقدرتكم، وتفكيركم المنعزل عن مراد الله تعالى. ولذلك يذهب الناس للتجارة، ولعموم مقاصدهم، فيعودون جميعاً في تفاوت من الربح والخسارة، وتحقيق مطالبهم المتنوعة. فلو كان الأمر بالجهد والتفكير فقط لحصل الجميع على كل ما أرادوا. فذاك بجهد بسيط يحصل على خير وفير، وذاك بجهد عظيم، ويحصل على خير قليل. مما يعلم المؤمن أهمية التوكل على الله تعالى، وسؤاله، والإلحاح في الطلب، ثم الرضا بالمقسوم، فإن لله تعالى الحكمة البالغة في تحقيق مطالب العباد. فهو يعلم ما يصلح لكل عبد من عباده، قدراً ونوعاً، وكذلك الزمن الأنسب والأصلح له، أكثر من معرفة الإنسان بنفسه.

فمن أدرك ذلك حق الإدراك كان من أسعد الناس، فإن هذا العلم مُوجب ومُحقق للسعادة القلبية. فإنه العلم المصاحب للتدبر والتأمل والاتعاظ، والرضا، فتهون عليه المصائب، وما يفوته مما لم يُكتب له، فيسعد بقضاء الله تعالى وقدره، وما قدره وكتبه له. فيكون عند الشدائد صبوراً، وعند منح الخير شكوراً، ومتواضعاً،

ومستخدماً لها بما يُرضي الله سبحانه وتعالى. مما يعلم المؤمن أن يُوَطِّن نفسه على هذا الإعلام المسبق من الله تعالى، بأنه في كتاب محفوظ.

ثم يختم الله تبارك وتعالى هذا التوجيه العظيم بما يغرس في المؤمن التواضع، فقال تعالى ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ فإن ربكم الله سبحانه وتعالى لا يحب كل إنسان اتصف بأنه ﴿ مُخْتَالٍ ﴾ هو التعالي بالنفس، نتيجة ما يتصوره عن نفسه، بما يدفعه للاستعلاء على غيره. وكذلك من اتصف بصفة الفخر ﴿ فَخُورٍ ﴾ وهو الذي يباهي بما عنده من مال أو جاه، أو قوة، أو غير ذلك مما هو مجال للمفاخرة. والفرق بين المختال والفخور هو أن المختال هو: ذو الخيلاء أي الكبر. المترفع على غيره، حتى أنه إذا أعطى، يكون عطاؤه بكبر وترفع على الْمُعْطَى. وأما الفخور: فهو الذي يعدد مناقبه وإحسانه ومعروفه كبراً، وفي ذلك تطاول بنفسه على غيره. وهذا لا يُرضِي حتى من أحسن إليهم. بل فيه أذى ومذمة له. فيكون بهذا الأسلوب قد خرج الْمُعْطِي بمعروفه إلى شر الأخلاق ومنكراتها. فمن كانت هذه أخلاقه، فإن الله تعالى قد نفى حُبَّه له، إذ قال الله سبحانه وتعالى ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ بما يفيد بغض الله تعالى له، لأن دلالة نفي المحبة عنه يعطي دلالة البغض لمن اتصف بهذه الصفة الذميمة، لأن الله تعالى يحب المخبتين المتواضعين، فيرفعهم في الدنيا والآخرة. ومَنْ نَفَى اللهُ تعالى عنه حُبَّهُ فقد خسر خسراناً مبينا. بما يفيد النهي والتحذير، والتهديد والعقاب. لأن نفي المحبة عقوبة، وكفى بها عقوبة رادعة. وفي هذا دليل على بغض الله عَزَّ وجل لهذه الأخلاق السيئة، ولمن تخلق بها. فمن عظيم التنفير عنها أن ورد النهي بنفي حُب الله تعالى لمن تخلق بهذا الخلق المشين، الكريه.

وورد التوجيه الرباني ببلاغة عظيمة، إذ تضمنت هاتين الخصلتين جميع صور السلوك السيء، وفي دلالة لفظتين فقط ﴿ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ بل من شدة شناعتها ورذالتها أنه حتى ولو اقترنت بالبر، فإن المبرور به يكره صاحبها، فيكره من أوصل له البر بهذا الاقتران من الفخر والخيلاء. ومثاله: كأن يعطي ويساعد محتاجاً وهو مفاخر، ومتفاخر عليه بما أعطى وأعان، فإنه بذلك الاقتران قد نقل البر من الخير إلى الشر، ومن الفضيلة إلى الرذيلة. فأبان وأظهر الله تعالى حقيقتها بأكمل البيان وأحسنه، فسبحان من جعل من مظاهر إعجازه: نظمه وبيانه، وتعليمه وإرشاده.

وهناك فرق بين من يتحدث بالنعمة على سبيل الشكر والتعليم وبين من يفاخر ويتعالى بها على غيره. قال الشوكاني رحمه الله تعالى: وليس منه التحدث بنعم الله تعالى، فإن الله عَزَّ وجل يقول في سورة الضحى

﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾ ﴾[١] فمن تحدث بالنعمة على سبيل الخير، والتعليم، والتوجيه، وإشعار غيره بالرجاء في الله تعالى فإنه محمود، لصفاء النية والغاية والهدف، واقترانه بالتذلل لله تعالى، والاعتراف برحمته ونعمته عليه. وبشرط أن لا يؤذي غيره بما يقول.

فإن هذا التوجيه من الله تعالى يبين أن هذا الدين قائم على مكارم الأخلاق. وأن شريعة الله تعالى في جميع الأزمان ترتكز على أصول ثابتة لا تتغير، فتبني في المؤمن عظيم الأخلاق في التصرفات أينما كان، وعلى أي وجه كان حاله من اليسر أو العسر، أو الأحداث التي تصيبه. فالحمد لله على نعمة هذا الدين العظيم. اللهم إنا نستجير بك من الفخر والخيلاء، وجميع منكرات الأخلاق، وارزقنا اللهم التواضع ومكارم الأخلاق يا رب العالمين.

ثم يخبر تبارك وتعالى عن الذين أنعم الله تعالى عليهم بإنعامه، ثم يمتنعون عن العطاء والإنفاق، بل يبلغ التجاوز بهم إلى أن يأمروا غيرهم بالبخل. فقال تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ هم الذين اتصفوا بالبخل ﴿ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ ﴾ بامتناعهم عن العطاء والإنفاق في أوجه الخير. مما يدل على أنهم منعوا وامتنعوا عما هو واجب عليهم من الحقوق الواجبة، فتجاوزا إلى مرحلة أعظم مما هم عليه، فقال تعالى عنهم ﴿ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ﴾ فلم يكتفوا ببخلهم، بل تجاوزوه إلى أنهم يأمرون غيرهم بالبخل، وبالتالي يجحدون نعمة الله تعالى عليهم.

ثم يخبر عَزَّ وجل عن حال من أعرض عن طاعته ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ ومن يتولى بالإعراض عما أخبر وأمر الله تعالى به من الإنفاق والتواضع، والطاعة لله تعالى فإن الله عَزَّ وجل غني عن عباده جميعاً، فلا حاجة له عَزَّ وجل فيهم، بل هم الفقراء إليه جَلَّ في علاه. وقد قصر الله تبارك وتعالى كمال الغنى عليه عَزَّ وجل ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ﴾ بما ينفي أن يكون هناك أحد يماثله جَلَّ جلاله، أو أن أحداً من خلقه في غِنَى عن الله تبارك وتعالى. بما يثبت أن كل أحد فقير في كل شيء إلى ربه عَزَّ وجل، بل وفي كل حال هو عليه. فهو الغني وهو الْمُغْنِي جَلَّ جلاله.

وأنه سبحانه وتعالى هو ﴿ ٱلْحَمِيدُ ﴾ أي: المحمود على غناه، وعلى عطائه، وكرمه. والمحمود على كل حال، سواء حَمِد العبد ربه جَلَّ شأنه، أو لم يحمده، فهو المستحق للحمد من عباده، لتفضله بالإنعام عليهم بالنعم التي لا تحصى ولا تُعد. فالحمد لله تعالى على ما أنعم به مِن نِعم لا تُعَد، وإحسان منه لا يُحد. وفي اقتران

---

(١) الشوكاني، فتح القدير (٤/٢٣٥)

الحميد مع الغني ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ ما يفيد أنه المحمود على غناه، فإن من كمال صفات الله تعالى أن جمع مع غناه صفة الثناء على كرمه وجوده. فمع غناه عن خلقه إلا أنه يوالي في عطائه الذي لا ينقطع. مما يتوجب على المؤمن أن ينفق، ولا يكن كالذين يبخلون ويأمرون غيرهم بالبخل. فإن الله تعالى هو الذي أغنى، وهو الذي يعطي ويغني. مما يربي في المؤمن الجود والكرم، في أدب من مكارم من الأخلاق.

وقد أفاد ﴿ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ من حيث السياق أنه المتفرد سبحانه وتعالى بكمال الغنى، وصفة الحمد والثناء على كمال غناه وكرمه وجوده من خزائنه على خلقه. وقد أفادت دلالتها عظيم غناه، وكثرة حامديه في السماوات والأرض، وأنه محمود عند خلقه تبارك وتعالى بما أعطاهم وبسط عليهم من فيض إنعامه سبحانه وتعالى، وهو المحمود بكل لسان وعلى كل حال، فلا يُحْمَدُ في السراء والضراء إلا هو عَزَّ وجل، فهو المحمود في جميع أفعاله وأقواله وشرعه، وما يقدره ويمضيه، وما يمنعه سبحانه وتعالى. فهو عظيم الشأن، كثير الإحسان على عباده، بما يفيضه عليهم من الخيرات التي لا حدود لها. فنحمد الله عَزَّ وجل.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ
وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ
عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ
وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ
وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا
عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ
مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾

بعد أن أعلَمَ سبحانه وتعالى عن أن سبب ما أخبر به من سابق علمه فيما يصيب العباد من مصائب الدنيا بأنه من أجل ألا يحصل عندهم الجزع والتأسف والحسرة والحزن، والاغتمام على ما فاتهم، وما فقدوا مما يحبون، يزيد تبارك وتعالى على ذلك أن من رحمته عَزَّ وجل أن أرسل الرسل ليقوم الناس بالعدل، رحمة منه جَلَّ في علاه. فقال سبحانه وتعالى ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ استهل السياق الكريم بتأكيد البيان بحرف التحقيق

﴿ وَلَقَدْ ﴾ والذي تصدره لام القسم، ثم بضمير المتكلم لله عَزَّ وجل ﴿ أَرْسَلْنَا ﴾ وذلك لتأكيد ما بعده من بيان، وما دل عليه من الدلائل العظيمة.

فبدأ البيان بالإعلام أن من فضله تبارك وتعالى على العباد هو إرسال الرسل إليهم ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ لقد أرسلنا رسلنا بالحجج الواضحة الظاهرة البائنة ﴿ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ وهو اسم جنس لسائر الكتب التي أنزلها الله سبحانه وتعالى، وتفضل بها لتتحقق للعباد سعادة الدارين، فقد أنزل مع المرسلين في كل أمة الكتاب الذي تضمن شريعته كاملة لها، من الأحكام والأخلاق، والعبادات، والعقائد، وما فيها من التبشير والإنذار، والمواعظ التي تبين للناس طريق الهدى والصلاح والنجاة في الآخرة من عذاب النار. مما يبين قوة رحمة الله تعالى بالعباد، وعنايته بهم، إذ أرسل المرسلين، ومعهم الكتب التي تناولت تحقيق سعادتهم في الدارين. مما يُوجب محبته سبحانه وتعالى، والتفاني في طاعته على هذه العناية العظيمة، وما يتبعها من تحقيق السعادة للعبادة الذين اتبعوا المرسلين، كل في عهده وزمنه. وخاتمتهم رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم.

ومن دقائق البيان أن الله تعالى قال فيما يخص البينات ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ بينما قال في شأن الكتب ﴿ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ فالكتب جاءت مُنَزَّلة من الله تعالى من العلو، تعظيماً لشأنها، وبيان لمصدرها. بينما الآيات تحدث في الأرض بأمر الله تعالى، كانشقاق القمر في عهده صلى الله عليه وسلم، وكخروج الناقة من الصخرة لقوم ثمود، في عهد نبي الله صالح عليه الصلاة والسلام. وكذلك عصا موسى عليه الصلاة والسلام التي تتحول إلى حية تسعى.

وكذلك أنزل سبحانه وتعالى مع المرسلين ﴿ وَٱلْمِيزَانَ ﴾ هو العدل في كل شؤونهم، في الأقوال والأعمال، من أجل ﴿ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾ ليتحقق بين الناس القسط، وهو العدل بهذا الميزان الذي تضمنته الكتب، وأرشد إليه المرسلين، ويدخل في ذلك الموازين التي يزن بها الناس الأشياء في البيع والشراء، أي: فأرشدهم إلى ذلك، وأمرهم به. مما يبين منزلة العدل، ورحمة الله تعالى العباد بهذا النهج الذي أنزله مع المرسلين، حتى ينتفي به البغي والشطط، والإجحاف والبطر، واستخدام القوة والسلطة. بل جعل كل قوة خاضعة للعدل، بما أرشد وبين سبحانه وتعالى في الكتب التي أنزلها، وما أرشد إليه المرسلين. وقد عطف سبحانه وتعالى الميزان على الكتب ﴿ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ ﴾ لبيان منزلته وأهميته، بأنه منزل من الله تبارك وتعالى، وأن الغاية من ذلك هو هداية الناس للحق الذي يمنع بينهم البطر والبغي.

ومن جليل إنعامه تبارك وتعالى كذلك أن أنزل الحديد في الأرض، فقال جَلَّ شأنه ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ ﴾ فربكم هو الذي أنزل الحديد في الأرض. ثم بين جَلَّ شأنه أن الغاية منه هو ردع بأس بعضكم عن بعض ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ فيه القوة التي تردع وتمنع بغي من صد عن الحق، ولمن عاند وكابر، بعد أن قامت الحجة عليه، وكذلك فيه ردع لمن طغى في تعامله، بما خول الله تعالى للإمام والحاكم من السلطة في ضبط شأن الرعية.

وبعد تخصيص هذه الغاية بالذكر لإظهار أهميتها، يعطف عليه سبحانه وتعالى عموم منافع الحديد ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾ ومنافع ينتفع بها الناس من معدن الحديد. وأورد سبحانه وتعالى المنافع عامة، لتستوعب كل ما ينفع وينتفع الناس به من معادن الحديد، ولتستوعب جميع تطورات الاستخدام له في شؤون العباد. مما يبين عظمة تدبير الله تعالى، وشمول رحمته وعنايته بالإنسان، وإيجاد وخلق ما يحتاجون إليه، مع قابليته للتطوير بما يناسب احتياجات كل عصر من العصور. مما يستوجب شكره ومحبته سبحانه وتعالى، والتفاني في طاعته على هذه العناية والحفاوة العظيمة، والإيمان بلوازم كمال الإيمان. والمتأمل يجد وفرة الحديد أكثر من وفرة بقية المعادن كالذهب والفضة وغيرها، فكلما كان الإنسان له أحوج كان وجوده أكثر. مما يدل على عظمة تدبير ربنا الذي أوجد هذا التناسق لمقادير وجود الأشياء بحسب حاجة الإنسان.

ثم أخبر تبارك وتعالى عن الغاية التعبدية من هذا الإنعام بالرسل والكتب، والميزان، والحديد، فقال سبحانه وتعالى ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ﴾ ليظهر من العباد من ينصر دينه ورسله ﴿بِٱلْغَيْبِ ﴾ أي: مخلصاً لله تعالى، فيتعامل مع أمر الله تعالى به وكأنه يراه، وأنه يراقبه، وأنه يعلم منه كل شيء عَزَّ وجل، وبالتالي فإنه لا يجاهد ولا يقاتل، ولا يطيع، ولا يعمل إلا إخلاصاً لله سبحانه وتعالى. وليس رياء، ولا تفاخراً، بل إخلاصاً لله سبحانه وتعالى. وأيضاً وفق ما وعد الله تعالى به لمن ينصره من النعيم المقيم في جنات الآخرة. فإن من غايات ذلك هو: ليظهر من الخلق من ينصر دينه ورسله، ويقوم بالعدل، الذي هو الميزان. ويستخدم نعمه العمل والاستخدام الصحيح، وفق منهجه تبارك وتعالى، الذي أوضحته الرُّسُل، وتضمنته الكتب. وسماه سبحانه وتعالى بالنصر ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ ﴾ فَسَمَّى سبحانه وتعالى القيام بالحق انتصاراً له تبارك وتعالى، وذلك تعظيماً لطاعته عَزَّ في علاه. وكذلك ليتبين من ينصر المرسلين، بالطاعة، والجهاد بالنفس والمال معهم. وكل ذلك ﴿بِٱلْغَيْبِ ﴾ فيتعامل مع دين الله تعالى ومع المرسلين إخلاصاً لله تعالى، وكأنه يراه، وأنه يراقبه، وأنه يعلم منه كل شيء سبحانه وتعالى.

ثم يخبر تبارك وتعالى عن كمال قوته وعزته، فيقول عَزَّ وجل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ إن ربكم الله تبارك وتعالى متصف بالقوة، وكمال القدرة على تحقيق ما يريد، وأنه العزيز الذي لا يُرام ولا يُمانَع، ولا يمتنع عليه شيء، فإن سلطانه فوق كل سلطان، وقوته فوق كل قوة، وقدرته فوق كل قدرة. مما يؤكد ويبين أن من نصر دين الله تعالى بأي وسيلة حقق الله تعالى له النصر. وأظفره على من مانعه وعاداه. فأكد تبارك وتعالى ذلك بنون التوكيد ﴿إِنَّ﴾ التي تؤكد تحقق ما بعدها، مع بيان صفته سبحانه وتعالى المؤكدة لتحقق النصر بأنه القوي ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ﴾ ثم أكدها بصفة ثانية ﴿عَزِيزٌ﴾ فالعزة تقتضي التمكن والتسلط، وأنه لا أحد يستطيع أن يتسلط على ما يريده ويقضي به عَزَّ وجل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ فمن امتلك القوة والعزة فلا يقف أمامه شيء، فكل شيء مهزوم، لأنه تحت سلطانه وقهره. وبالتالي لا تتمانعوا أيها المؤمنون عن الدفاع عن الدين، فإن ناصركم قوي عزيز، له كامل القوة والعزة وكمالها. وكذلك عليكم أن تهابوه في الغيب، عندما لا يراكم أحد، ليشمل ذلك جميع أنواع التعامل، ومنها العدل، فلا تجعلوا قوتكم تبدد العدل في الميزان، ولا تجعلوا غفلة غيركم وسيلة للتطفيف، فإن الله تعالى قوي في عقوبته، وعزيز بسلطانه، لا يحتاج إليكم، وأنتم الفقراء له عَزَّ وجل. فسبحان الله القوي العزيز.

وهو أسلوب في غاية الإبداع من كل وجه، ومن ذلك التدرج في السياق، ابتداء بيان فضله وتفضله عَزَّ وجل، ثم المطلوب من العباد إزاء هذا التفضل والإكرام. ثم ختام التوجيه الكريم ببيان قوته وعظمته وعزته سبحانه وتعالى، الموجبة لطاعته والامتثال لأمره، حتى وإن غابت عيون الناس عنه. لينتقل بالعبد في عبوديته إلى الإخلاص في السر والعلانية، وإقامة دين الله تعالى ومنهجه في السراء والضراء، وفي كل حال هو عليه الإنسان، وألا يُرائي أحداً إلا الله جَلَّ في علاه. ليجعل ذلك البيان من المؤمن شخصية تحمل القدوة والأسوة الصالحة المطيعة لربها في كل وقت وحين، وأينما حلت، وكانت.

ثم يذكر من أمثلة ذلك بعض المرسلين الذين أرسلهم الله تبارك وتعالى للعباد، ليظهر كمال عنايته بعباده، فقال عَزَّ وجل ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ لقد أرسل الله ربكم نوحاً رسولاً إلى قومه، وكذلك إبراهيم عليهما الصلاة والسلام. وجعل في ذريتهما النبوة والكتاب. وقد استهل البيان ذلك بالتأكيد والتحقيق بالمؤكدات التي تضمنها قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ﴾ وهي: القسم، وحرف التحقيق والتأكيد. لإظهار قوة البيان وتحققه، وكذلك تأكيد ما دل عليه من الدلائل العظيمة ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾ لقد أرسل الله ربكم نوحاً رسولاً إلى قومه، وهو أول الرسل عليهم الصلاة والسلام، وهو من أُولي العزم ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ﴾ وكذلك إبراهيم عليه الصلاة والسلام

﴿وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ﴾ وقد جعل الله تبارك وتعالى النبوة في ذرية نوح وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام. كما جعل في ذريتهما كذلك الكتب، وقد أفرد الله تعالى الكتاب بالرغم من تعددها، بما يُظهر توافقها في الهدف والغاية، وفي أصول الدين، وهو جنس لكل كتاب نزل من الله تعالى على مَن أرسله سبحانه وتعالى من المرسلين.

ثم يخبر الله سبحانه وتعالى بانقسام الناس على المرسلين إلى قسمين. فقال تعالى ﴿فَمِنۡهُم مُّهۡتَدٖ﴾ فبعظهم اهتدى بما جاء به الرسل، فأطاع وتبع رسوله الذي أرسله الله تعالى إليهم ﴿وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ وأكثرهم خرجوا عن الحق الذي عاينوه، وتأكدوا منه. إذ وصفهم الله تعالى بأنهم ﴿فَٰسِقُونَ﴾ والفاسق هو الذي يخرج من الشيء بعد أن كان فيه، بما يفيد أنهم خرجوا ومرقوا من الدين بعد أن تحقق لهم صحته، وأيقنوه، فإن قوة معرفتهم له، جعلتهم كمن خرج عنه بمعرفة وليس عن جهل. وهذا من دقائق دلالات كلمات القرآن التي تناهت في الدقة التي تعطي كمال المراد بما أراد الله تعالى بيانه. وهؤلاء الفاسقون هم أكثر الناس. مما يبين أن أكثر الناس هم أهل الكفر على مدار الأزمان. وهذه في حد ذاتها آية عظيمة بأن أكثر الناس في كل عصر هم الفاسقون كما بين تبارك وتعالى. مما يبين أن هذا القرآن هو كلام الله تعالى.

ثم ذكر جَلَّ في علاه بعضاً من المرسلين الذين جاؤوا بعد نوح وإبراهيم عليهم السلام، فقال تبارك وتعالى ﴿ثُمَّ قَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيۡنَا بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَ وَجَعَلۡنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأۡفَةٗ وَرَحۡمَةٗۚ وَرَهۡبَانِيَّةً ٱبۡتَدَعُوهَا مَا كَتَبۡنَٰهَا عَلَيۡهِمۡ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ رِضۡوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوۡهَا حَقَّ رِعَايَتِهَاۖ فَـَٔاتَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۡهُمۡ أَجۡرَهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ ثم أتبعنا بعد نوح وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام برسل مِنَّا. وقد أفادت دلاة ﴿قَفَّيۡنَا﴾ أي: أتبعنا، بما يفيد متابعة الرسل بعضهم بعد بعض ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾ أي: آثار نوح وإبراهيم عليهما السلام ﴿بِرُسُلِنَا﴾ أي: بالمرسلين الذين تابعنا في إرسالهم من بعد نوح وإبراهيم عليهم الصلاة والسلام.

ثم قال تبارك وتعالى ﴿وَقَفَّيۡنَا بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ﴾ أي: فأرسلنا رسلاً متتالية حتى انتهى إلى عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام. فنص سبحانه وتعالى على عيسى ابن مريم دون غيره، باعتبار هو آخر المرسلين الذين جاء بعدهم خاتم الأنبياء والمرسلين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ليفيد البيان الكريم: أنه توالت الرسل من بعدهم إلى أن أتى عيسى الذي أنزلنا عليه الإنجيل ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَ﴾ الذي أنزله الله تعالى

عليه. ثم يخبر تبارك وتعالى بما امتن به على قوم عيسى من كريم العطاء، فقال عَزَّ وجل ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ وهم الحواريون. فجعل فيهم منحتين كريمتين: الأولى ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً﴾ والرأفة هي: الرّقة، واللين، التي جعلت بينهم تواد وتعاطف. وأما المنحة الثانية لهم من الله تعالى هي الرحمة ﴿وَرَحْمَةً﴾ أي: الشفقة. وهي إرادة إيصال الخير للغير، وهي تفيد العطف على الغير بما يحتاجون إليه. مما يدل على فضل الرأفة والرحمة، وتطبيقها في حياة المؤمن، والتحلي بها في شؤونه مع نفسه، ومع غيره.

ثم قال تعالى عما ابتدعوه وأضافوه لأنفسهم: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً﴾ وهي الخوف المبتدع وليس الخوف الحقيقي. قال بعض أهل التفسير: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا﴾ ليس هذا معطوف على ما قبله، وإنما ورد منصوباً بفعل مُضمر، يدل عليه ما بعده. وتقديره: وابتدعوا رهبانية ابتدعوها من قِبَل أنفسهم، وهي غلوهم في العبادة، وحَمْل المشاق على أنفسهم في الامتناع عن المطعم والمشرب، والملبس والنكاح. والتعبد في الجبال ﴿مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾ أي: ما فرضناها عليهم ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ أن الاستثناء راجع إلى قوله عَزَّ وجل ﴿ٱبْتَدَعُوهَا﴾ والمعنى ابتدعوها طلباً لرضوان الله، ولم يكتبها عليهم. وهذا قول الجمهور[1]

ثم قال تبارك وتعالى ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ فهؤلاء الذين ابتدعوا الرهبانية ما سيروها وفق منهج الله تعالى. بل خالفوا بها دين الله عَزَّ وجل. مما يبين خطر الغلو، وأنه ينتقل بالمبتدع إلى لابتداع والاختراع، مع سلامة النية، ولكنه عمل لا يحبه الله تعالى، فإن الله عَزَّ وجل يُحب أن يُطاع بما أمر، ووفق ما شرع. فأغلب البدع في العبادات هي نتيجة الوسوسة في الاختراع من النفس ومن الشيطان الذي يزين المخافة بالتمجيد للابتداع في الدين. ومهما كانت النية صحيحة في العمل غير الصحيح فإنه بدعة وضلالة. والعمل غير الصحيح هو الذي ليس وفق شريعة الله تعالى، ولم يعمله الرسول صلى الله عليه وسلم من العبادات.

ثم يخبر جَلَّ جلاله بحال المؤمنين الذين تابعوا إيمانهم بالإيمان برسول الله محمد صلى الله عليه وسلم، ممن عاش وأدرك بعثته عليه الصلاة والسلام ﴿فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ فآتينا الذين آمنوا منهم كامل ثوابهم من غير نقصان. قال الشوكاني رحمه الله تعالى: الذي يستحقونه بالإيمان. وذلك لأنهم آمنوا بعيسى ابن مريم عليه السلام، وثبتوا على دينه حتى آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم عندما بعثه الله تبارك

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣١١/٧)

وتعالى بالنبوة[١] ثم قال عَزَّ وجل ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ وأغلبهم خارجون عن الإيمان الذي يجب أن يلزموه. مما يبين خطورة البدعة، وخطورة الخروج عن النصوص الشرعية، بالزيادة والنقصان. فإن دين الله تعالى واضح بالنصوص الشرعية، وبالسنة النبوية، كما طبقها الرسول صلى الله عليه وسلم، وتابعه عليها أصحابه رضي الله عنهم أجمعين.

ثم يختتم الله تبارك وتعالى سورة الحديد بآيتين توجيهيتين عظيمتين، فقال عَزَّ وجل ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ يخاطب الله تعالى عباده المؤمنين من أهل الكتاب: اليهود والنصارى بأن يتقوه بلزوم طاعته، والبعد عن المعصية، وأن يؤمنوا برسوله محمد صلى الله عليه وسلم، ليكافئهم بحظين وضِعْفينِ ونصيبين من رحمته. بما يفيد أن النصيب الأول عن إيمانهم برسولهم، والنصيب الثاني لإيمانهم برسوله محمد صلى الله عليه وسلم. قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: يا أيها الذين صَدَّقُوا الله ورسوله من أهل الكتابين، التوراة والإنجيل، خافوا الله بأداء طاعته، واجتناب معاصيه، وآمنوا برسوله محمد صلى الله عليه وسلم. فعن ابن عباس رضي الله عنهما: يعني الذين آمنوا من أهل الكتاب[٢] وقد بدأ الخطاب الكريم بمناداة المؤمنين من أهل الكتابين بقوله عَزَّ وجل ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ وهذا النداء يحمل في دلالته لفة الانتباه، ووجوب إرعاء السمع، وأخذ الأمر بجد فيما تضمن من توجيه وبيان، بما يفيد أخذه بعزم وأهمية وجدية، وكذلك تضمن تسمية الْمُخَاطَبين بصفة الإيمان ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ قال ابن مسعود رضي الله عنه: إذا سمعت الله يقول ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ فأرعها سمعك، فإنه خير يأمر به، أو شر ينهى عنه[٣] وهذا النداء يحمل في دلالته لفة الانتباه لأهل الكتاب من اليهود والنصارى بإرعاء السمع، وأخذ الأمر بجد فيما تضمن من توجيه، بما يفيد أخذه بعزم وأهمية وجدية.

وكذلك تضمن تسمية الْمُخَاطَبين بصفة الإيمان، التي هي من أرقى درجات الوصف، وما يستلزمه هذا الوصف من الامتثال بما آمنتم به، وكذلك تَحْمِلُ في دلالتها التكريم للمُخَاطَبين، وتشجيع وترغيب لهم في متابعة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم. إذ ناداهم ربهم بصفة الإيمان، وهي رتبة عظيمة ومنحة كريمة أن ينادي ربنا تبارك وتعالى عباده برتبة الإيمان، والتي تحمل إثبات الإيمان لهم، والتزكية لإيمانهم، بما ينتفي معه التعذر من

(١) الشوكاني، فتح القدير (١٧٩/٥)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٤٣٤/٢٢)

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤/٢)

عدم الوفاء بمضمون ما نُودوا له؛ وخُوطِبُوا وأُمِرُوا به، وفي مخاطبتهم بأسلوب النداء ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ﴾ ما يسترعي أسماعهم، ولفت انتباههم لأمر عظيم جليل، فيستدعي أسلوب النداء الآذان للإصغاء، والعقول للانتباه إلى ما بعده من كلام وخطاب رب العالمين، مما يدل على أهمية ما نادى إليه ربنا تبارك وتعالى من البيان، وما يجب تجاهه من الأخذ والاهتمام به؛ مع قوة الالتزام.

ومن الفوائد السلوكية: أنه إذا كان الله تعالى ينادي عباده بهذا النداء الكريم، وهذا اللطف العظيم وهو سيدهم ومولاهم وخالقهم، وهم عبيده، فإن العبد أحوج إليه في أسلوب مناداته ومخاطبته لغيره من المخلوقين، خاصة عند التوجيه والطلب أو الأمر، فإنه أدعى للتفاعل والقبول، وتليين القلوب.

ثم أمرهم أولاً بالتقوى ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ لأن التقوى تؤدي إلى ما بعدها من الامتثال بالطاعة. والتقوى تتضمن الخوف من عقابه سبحانه وتعالى، والطمع والأمل والرجاء في رحمته وثوابه. وأنها تُحقق في المتقي مراقبة الله تعالى في السر والعلن. وقد ورد التوجيه بالتقوى بصيغة فعل الأمر ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ الذي يعني الوجوب. وليفيد أنه يجب عليكم أن تخافوا عقاب الله ربكم عَزَّ وجل، وأن تطيعوه فيما دعاكم إليه وبينه لكم رسوله صلى الله عليه وسلم. وفي هذا تأكيد لأهمية التقوى ومنزلتها، وأثرها في الاتباع. وأنها المرتكز في الطاعة والاستجابة.

ثم يأمرهم سبحانه وتعالى بالتصديق برسوله محمد صلى الله عليه وسلم. فقال تبارك وتعالى ﴿وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ﴾ فآمنوا يا أهل الكتاب برسولنا محمد صلى الله عليه وسلم، واتبعوه. بما يفيد أنه لا يسعكم غير ذلك. وأنه يُثيبكم على هذا الإيمان بضعفين من الأجر ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ يعطيكم الضعفين من الأجر. بسبب إيمانكم برسوله محمد صلى الله عليه وسلم، وإيمانكم بمن قبله من المرسلين. قال ابن عباس رضي الله عنهما: أجرين: لإيمانهم بعيسى عليه السلام، وتصديقهم بالتوراة والإنجيل، وإيمانهم بمحمد صلى الله عليه وسلم، وتصديقهم به[1] مما يبين كرم الله تعالى بهذه المكافأة العظيمة، وترغيبهم في التصديق برسوله محمد صلى الله عليه وسلم، ليفوزوا بضعفي الرحمة. خاصة وأن الرحمة من الله تعالى تعني كمال العناية، والمغفر، والعفو، وتحصيل الجنة، ورفعة الدرجات.

وكذلك يمنحكم من كريم عطائه سبحانه وتعالى، بأن ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾ ويجعل لكم نوراً تمشون به في الدنيا، وهو القرآن، وما يتضمنه من الهدى، والأجر، وكذلك نوراً تمشون به على الصراط. لأن الله تعالى لم يحصر هذا النور في وجه واحد، فشمل الأوجه كلها. وهذا من غزارة البيان في

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٢/٤٣٥)

القرآن، باستيعابه لجميع الدلالات المرادة والمقصودة. ولذلك قال بعض اهل التفسير، أنه القرآن، وقيل الأجر في الدنيا والآخرة، وقيل: نور على الصراط يمشون به يوم القيامة(١) وكذلك ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ يكفر عنكم ذنوبكم، بسترها ومحوها، فلا يعاقبكم عليها. وهذا كرم من الله تعالى، إذ يرغب عباده في طاعته، ويمنحهم العظيم من الأجر، المبالغ فيه، كرماً وجوداً. لأن من صفاته أنه سبحانه وتعالى أنه غفور رحيم، كما ختم بها الآية الكريمة، فقال تعالى ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ فإن ربكم سبحانه وتعالى مُتَّصِف بمغفرة الذنوب، ورحمته بالعباد. فهو ﴿ غَفُورٌ ﴾ يغفر السيئات ويمحوها عنكم، فلا يعاقب عليها، بل يمحوها ويسترها، وكذلك هو ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ أي: الموصل رحمته إلى خلقه أجمعين. فالرحيم باعتبار الفعل، إيصال رحمته إلى خلقه. مما يستحث به العباد على طاعته تبارك وتعالى، وهذا والله من عظيم كرمه ورحمته سبحانه وتعالى. إذ يرغبهم فيما يصلون به إلى سعادتهم في الدنيا والآخرة.

ثم يخبر تبارك وتعالى بعلة وسبب أمره لأهل الكتاب بأن يؤمنوا برسوله محمد صلى الله عليه وسلم. فيقول عزَّ وجل ﴿ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ ليعلم أهل الكتاب الذين لم يؤمنوا برسولنا محمد صلى الله عليه وسلم، أنهم لا يقدرون على كسب شيء من فضل الله تبارك وتعالى لأنفسهم، أو أن يمنحوه لغيرهم بالعطاء. وأن الفضل كله بيد الله وحده لا شريك له، يصرفه ويؤتيه من يشاء من عباده، فإن الله تعالى هو لا غيره صاحب الفضل الواسع العظيم، الذي ليس له حدود، وأنه يختص بفضله من يشاء، سواء من النبوة والرسالة أو غير ذلك من عموم الفضل. فقد تضمنت هذه الآية الكريمة العظيمة أن التدبير والفضل، والعطاء والتوزيع خاص بالله تعالى، يُسَيِّرُهُ كيف يشاء، وأنه ليس كما يريده الإنسان، بل إن الأمر والشأن لله تعالى.

ومن دقائق دلالات قوله تعالى ﴿ لِّئَلَّا يَعْلَمَ ﴾ ما ذكره ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: إنما هو ليعلم. لأن العرب تجعل (لا) صلة في كل كلام دخل في أوله أو في آخره جَحْدٌ(٢) أي: إشارة إلى جحود أهل الكتاب لنبوة محمد صلى الله عليه وسلم التي يعرفونها من كتبهم، بأنه نبي ورسول عليه الصلاة والسلام. ليتحقق لهم أنهم لا يقدرون على منع ما أعطى ويعطي سبحانه وتعالى، ولا إعطاء لِمَا منع جَلَّ في علاه. وقال القرطبي رحمه الله تعالى ﴿ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ أي: ليعلم. وقال قتادة رحمه الله تعالى: حسد أهل

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣١٣/٧)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٤٤٤/٢٢)

الكتاب المسلمين، فنزلت ﴿ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ وقال مجاهد رحمه الله تعالى: قالت اليهود: يُوشك أن يخرج منا نبي. فلما خرج من العرب كفروا، فنزلت ﴿ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ ﴾[1] مما يبين أثر الحسد وقوته عندما يسيطر على الإنسان، فإنه يمنعه من قبول الحق، حتى ولو أدى به ذلك إلى أن يعصي الله ربه تبارك وتعالى، ويحرم نفسه الجنة بكفره للحق، وجحوده له. مما يبين خطورة الحسد، والاستعلاء.

فيبين لهم سبحانه وتعالى ولغيرهم أن فضل الله تعالى له وحده لا شريك له ﴿ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾ فليس لهم، ولا لغيرهم القدرة على توجيه مراد الله تعالى من الفضل وغيره كيفما يريدون، لا في العطاء، ولا في المنع. ﴿ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ﴾ فإن الفضل عائد إلى الله صاحب الفضل سبحانه وتعالى، فيمنحه من يشاء من عباده. فخص محمداً صلى الله عليه وسلم بخاتمة الرسالات. وليس كما يظنونه في أنفسهم من الأحقية. وقد ورد الفضل مطلقاً، ليشمل جميع أنواع عطاء الله تبارك وتعالى. مما يُعَلِّم الإنسان: بأنه إذا شاهد غيره على فضل لا يرى أنه أهلاً له بحسب تقديره، فعليه ألا يحسده، فإن المعطي هو الله سبحانه وتعالى، وبالتالي لا تنازعه فيه. وهذا ينطبق على جميع فروع ومجالات الحياة، وما فيها من الفضل الذي يختص الله تعالى به بعض عباده دون بعض.

فالبعض قد يمنحه الله تعالى من فضله الوجاهة في مهنة أو عمل، ويراه غيره ليس أهلاً لذلك، وربما رأى غيره أحق به منه. وربما رأى من نفسه أنه الأحق بذلك. وهذا كمن يريد أن يكون فضل الله تعالى وتوزيعه وفق ما يراه ويهواه. ولذلك نرى في الحياة بلوغ بعض الناس لمراتب عالية، كان يتوقعها لغيرهم، فإذا بها تتوجه لمغمور غير معروف، أو لمن لا يرون فيه ما يرونه في غيره من الجدارة. مما يُعَلِّم المؤمن بأنه إذا رأى شيئاً من ذلك، فعليه أن يذكر الله تعالى ويسبحه، فإنه مالك الملك، يهب لمن يشاء ما يشاء. بل من واجبه أن يعينه ولا يقف ضده محارباً ومناكفاً له. ويستوعب ذلك من رزقه الله تعالى أموالاً، أو أولاداً، أو حظاً من الحظوظ التي لا يمكن حصرها وعَدَّها. مما يعلم المؤمن التواضع، والقبول بما يقسم الله تعالى لعباده من الأرزاق والفضل.

ثم ختم الله تبارك وتعالى سورة الحديد بقوله عَزَّ وجل ﴿ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ فإن الله تعالى هو صاحب ومالك الفضل، وأن فضله عظيم لا يحيط به أحد، سواء من حيث النوع والكثرة، أو من حيث الاختيار والاصطفاء، بما ينبه العباد أن عليكم سؤال ربكم، فهو مالك الفضل ومانحه ومعطيه. وأن عليكم بأن لا تعترضوا على عطاء ربكم لغيركم. وتأملوا فيما مُنِح لكل واحدٍ منكم من الفضل.

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٧٣/١٧)

فربكم هو المتفضل على عباده بما أعطى ومنح، وبما غفر وستر. وقوله تعالى ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ ما يفيد الزيادة عَمَّا يستحق العبد، لأن الفضل زيادة عن الاقتصار على الاستحقاق. وأيضاً أضاف تبارك وتعالى على الفضل منه صفة ﴿ٱلْعَظِيمِ﴾ ليدل على الكثرة، ويدل على المبالغة في العطاء، بحيث لا يتصوره العبد ولا يخطر بباله. كما يفيد قوله تعالى ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أن الله تعالى متصف بالفضل العظيم، وأنها صفة من صفات الله تعالى. وإذا كان المتصف بهذه الصفة له ملك السماوات والأرض، ولا يعجزه شيء، فإن العطاء منه سيكون مدهش للعباد إذا أعطاهم. اللهم إنَّا نسألك من فضلك العظيم في الدنيا والآخرة.

مما يفيد أن الفضل مِنَحٌ من الله تعالى، فيختص بها من يشاء من عباده، وأنه تبارك وتعالى يُعطي من يصطفيه من المكانة والخصائص ما يجعله وجيهاً شريفاً، وكريماً بين العباد. وهذا يفيد أمرين: الأول: سؤال الله تعالى فيما يحب ويتمناه العبد من خير الدنيا والآخرة. لأن الله تعالى لا يُعجزه شيء في الدنيا ولا في الآخرة. والأمر الثاني: أن من حصل له فضل، فهو من الله تبارك وتعالى، مما يوجب عدم الحسد لمن أعطاه الله تعالى فضلاً من فضله، فإن المتفضل هو الله تعالى، وليس العبد هو المتفضل على نفسه.

بل إن ذلك قاعدة للمؤمن في الحياة، إذ تعلمه كيف يستخدم هذه النعمة التي أعلم الله تعالى بها العباد، بأن الفضل له عَزَّ وجل، وأنه يمنحه من يشاء. فإذا رأى شيئاً من حظوظ الدنيا ذهب عنه لغيره قال: ﴿وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ وإن أصابه فضل تجرد من الحول والقوة، وقال ﴿وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ وإن كان يتوقع فضلاً لغيره، ثم أوقعه الله تعالى على غير توقعه، قال ﴿وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ وإن رأي من يخرجون على من منحه الله تعالى فضله، قال لهم ﴿وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ وسواء مع الولاة والحكام، أو مع منهم دونهم، وسواء كان في المال، أو الجاه، أو غيره من مساحات ومفردات وأنواع الفضل الذي لا يحصي نوعه ومقداره أحد. وإن رأى من يحسد غيره على ما منحه الله تعالى من الفضل قال لهم ﴿وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ فإنه تربي المؤمن على التواضع، وعدم الحسد، بل ويدفعه ذلك أن يعين صاحب الفضل، ولا يقف ضده حسداً واستعلاء. فالذين انحرموا من الإيمان والإسلام كان بسبب عدم إدراكهم أن الفضل بيد الله تعالى، يؤتيه من يشاء.

وفي ذلك معالجة نفسية للكثير من الأمراض النفسية والأعراض الفكرية، فإن رأى نعمة على أحدٍ قال ﴿ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ وإن أصابته نعمة، انتصر على تفاخره وافتخاره بقوله ﴿ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ وإن وسوست له نفسه بقدراته ومواهبه، وتعلق القلب بالأسباب، قال ﴿ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ وإن جُعِلَت ولاية غيره عليه في مهنته أو في أمر من الأمور، ثم رآه ليس بأقدر منه، كبح هوى نفسه وعالجها بقوله ﴿ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ وإن رأى في غيره ممن هو دونه أكثر وأجزل ربحاً، قال لنفسه ﴿ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ وإن خسر في تجارة أو في أمر من الأمور أو حَصَّلَ أقل القليل، على نقيض غيره، قال لنفسه ﴿ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ وإن فاتته وجاهة، وجاءت لغيره، عالج نفسه بقوله ﴿ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ وإن أراد الوقاية والتوقي من كيد الكائدين وحسد الحاسدين، قال لهم فيما أصابه من خير ﴿ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ وأن أصابه من الله تعالى خير، منع عن نفسه الحول والقوة بقوله ﴿ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ فيكون هذا الحكم الرباني علاجاً نفسياً وفكرياً عظيماً، وثمرة من ثمرات العقيدة الصحيحة، لأن في ذلك شكر لله تعالى، واعتراف لمصدر النعمة بأنها من عند الله تبارك وتعالى، يُفيض بها على من يشاء من عباده.

وهذا يعلم ويفيد المؤمن في أوجه الحياة المختلفة أن فضل الله تعالى ليس مقصوراً على فئة أو جماعة أو جنس، بل هو الذي يختار لفضله من يشاء، مما يوجب عدم التعدي والحسد، ومناكفة من تفضل الله تعالى عليه بفضل من فضله. وأن في هذا الاعتقاد ما يحقق الطمأنينة للمؤمن، وينزع منه الحسد، والكبر، والمشاحنة للغير بما تفضل الله تعالى به على من يشاء من عباده. اللهم إنَّا نسألك من فضلك العظيم في الدنيا والآخرة.

وأحمد الله تعالى وأشكره على ما أنعم به عليَّ من شرف هذا العمل، فوفقني على إتمام سورة الحديد. ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، وتُب علينا إنك أنت التواب الرحيم. والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله أجمعين.